الرحّالة والرّحلات

مصدراً لتاريخ تجارة البن وانتشار القهوة في جزيرة العرب

د. عبدالغفور بن إسماعيل روزي
قسم التاريخ - كلية الآداب - جامعة الملك سعود

إن لمدونات الرحالة عن الجزيرة العربية أكثر من قصة وقصة، كما أن لأطوارها الزمنية أكثر من مرحلة ومرحلة. والإحاطة بها وبما فيها يتطلب الإبحار من سفر إلى أسفار. وليس هناك خلاف أن لهذه المدونات مكنونات تنتظر الاستخراج، كما ليس هناك خلاف أن تلك المستخرجات بحاجة إلى العناية والاهتمام.

وإدراكاً من أهل العناية بتاريخ الجزيرة العربية على مدى عصورها، ولا سيما في جوانب تاريخها الاجتماعي والاقتصادي، وجدنا لديهم دعوات متصاعدة تنادي بضرورة الإحاطة والرصد والإلمام بما تضمه هذه المدونات. وبالنظر إلى شيوع التشكي من ندرة ما هو مسجل عن تاريخ الجزيرة العربية، وقلة وثائقه المحلية، وبالأخص في المواضع التي تشتكي النقصان والثغرات، ففي منظورهم أن الأمل معقود على ما دونه الرحالة إلى الجزيرة العربية؛ لملء الثغرات، وترميم النقص.

وما يدعو إلى الاطمئنان في وجه هذه الحماسة لكتابات الرحالة، أن أدبيات الرحلات إلى الجزيرة العربية تعيش حالياً مرحلة من طفرة الاهتمام، فهناك جهد مبذول لتعريبه، كما أن هناك حماسة متقدة لدراسته، ففي موضوعه تقام الندوات المتخصصة، كما تتوالى المحاضرات التي تلقى في حقوله التي تثرى في العادة بالمداخلات

مجلة فصلية محكمة تصدر عن دارة الملك عبدالعزيز
العدد الرابع شوال ١٤٢٥هـ، السنة الثلاثون
الدارة

والمناقشات. كما تنشأ من أجل رعايته مؤسسات علمية خاصة لجمع ما شرد منه، واكتشاف ما بقي منها خافياً. وتلك الجهود مجتمعة تثمر عن نتائج تتوالى وما تزال[١]. ومن نتائجها المنظورة أن العناية بكتب الرحلات في أزمنتها المختلفة ما تزال تتعاقب وتتوالى، فما يكاد يمضي زمن قصير على ترجمة رحلة وظهور دراسة جديدة، إلا ويعقبه ترجمة لرحلة أخرى مشفوعة بدراسة[٢].

إن الجهود التي بذلت للتعريف بالرحَّالة والرحلات لجزيرة العرب تغنينا عن تقديم دراستنا بالحديث عنها وعن رجالها، فلقد أغنى الدراسة دراسات قام بها أهل اختصاص ممن هم من أهلها[٣].

كما أن الدراسة معفاة بسبب ذلك أيضاً من تكرار ما قيل عن أهداف الرحالة وغاياتهم، فهذه تتصدر تقريباً ترجمة كل رحلة، كما تستهل كل دراسة عن الرحلات بالإشارة والتنبيه إليها[٤] مؤلفات عدة، كما أنها جعلت مركز اهتمامها تقديم متابعة تاريخية لرحلات شبه جزيرة العرب، وتفنيد غايات المرتحلين.

لذا فإنه سوف لا يمس دراستنا هذه ضُرٌّ إذا ما تجاوزنا الحديث عن كل ما تتصدر به بدايات الدراسات عن الرحلة والرحالة، وإذا ما تجاوزت

(١) على سبيل المثال: "ندوة الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية" التي عقدت في الرياض ما بين ٢٤-٢٧ رجب، ١٤٢١هـ/٢٢-٢٥ أكتوبر ٢٠٠٠م، دارة الملك عبدالعزيز.

(٢) نشر جهاد هديب تقريراً عن خطة مؤسسة علمية في دولة الإمارات العربية المتحدة للاستفادة من إمكانيات الحاسب الآلي بهدف حفظ مؤلفات الرحلات في برنامج خاص مصمم لها. الحياة (منوعات)، مئة رحلة عربية إلى العالم أغفلتها القرية الإلكترونية، الأربعاء: ١٠ جمادى الآخرة ١٤٢٢هـ/ ٢٩ أغسطس٢٠٠١م، ع ١٤٠٤٥.

(٣) انظر الدراسة الوافية لحمد الجاسر في تقديمه لكتاب جاكلين بيرين، اكتشاف جزيرة العرب، خمسة قرون من المغامرة والعلم، تعريب: قدري قلعجي (الرياض: منشورات الفاخرية د. ت)، ٥-١٦.

(٤) أعمال ندوة الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية، انظر فيها: أسعد عيد الفارس، الرحالة الغربيون في شبه الجزيرة العربية، أهدافهم وغاياتهم.

الدراسة التطرق إلى الأهداف والغايات، وكذلك التعرض إلى تاريخ الرحلات إلى جزيرة العرب في مراحلها التاريخية المختلفة، فهذه كلها يمكن الإحالة فيها على العدد الطيب من الدراسات المتوافرة(٥). والسبب في هذا الاتكال على جهد الآخرين يعود إلى أن هذه الدراسة لا تملك رفاهية التمادي في تلك المقدمات بسبب حيزها المقنن، كما أن مثل تلك المعلومات لا تدخل في صميم موضوع الدراسة نفسها.

وما يدخل في صميم الدراسة، ليس متابعة الرحالة من المنظور التاريخي العام للرحلات، بل حصر الاهتمام في زمن معين تمت الرحلات في نطاقه، ومن ثم تسليط الضوء على جوانب منتقاة في هذه الرحلات.

إن المعني بهم من الرحالة حسب هذا المنظور، هم من يشملهم تصنيفات مؤرخي الرحلات بالرحالة الذين استهلوا رحلاتهم إلى الجزيرة العربية بدءاً من القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي. وعلى الرغم من أن التصنيفات توحي وكأن المقصود بهؤلاء الرحالة هم الرحالة الأوربيون على وجه الغالب، إلا أن الدراسة سوف لا يكون

(٥) انظر كمثال لما هو متوافر:
- جاكلين بيرين، اكتشاف جزيرة العرب.
- روبن بدول، الرحالة الغربيون في جزيرة العرب، ترجمة: عبدالله آدم نصيف، (الرياض، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م).
- بيتر برنيث، بلاد العرب القاصية، رحلات المستشرقين إلى بلاد العرب، ترجمة: خالد أسعد عيسى، أحمد غسان سبانو (بيروت: دار قتيبة، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م).
- لي ديفيد كوبر، جورج رينتز، الحركة الوهابية في عيون الرحالة الأجانب، ترجمة: عبدالله ناصر الوليعي (الرياض، ١٤١٧هـ /١٩٩٧م).
- حمد الجاسر، رحالة غربيون في بلادنا، (الرياض: دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ١٤١٧هـ).
- عبدالله بن عبدالرحمن العبدالجبار، كتابات الرحالة الغربيين مصدراً لتاريخ شبه جزيرة العرب القديم، (الدارة، ع ١، س ٢٧، ١٤٢٢هـ).

نطاقها محصوراً على هؤلاء، بل إدراكاً منها لأهمية الرحلات الأخرى لموضوع الدراسة توسع نطاقها لتشمل الرحالة المسلمين، الذين عاصروا أقرانهم الأوربيين في شد الرحال أيضاً إلى جزيرة العرب بدءاً من القرن نفسه.

وعلى الرغم من أن الرحلات الأوربية (الغربية) هي الأكثر استئثارا لاهتمام مؤرخي الرحلات، وذلك بسبب تعاقبها وتسلسلها غير المقطوع، مما أدى إلى الالتفات إليها دون غيرها من الرحالة الآخرين، إلا أن جزيرة العرب بقدر مساو استقبلت غير قليل، وبتوالي الرحلات الأوربية نفسها، رحالة قدموا إليها من الأقطار العربية الإسلامية ممن مثلوا تواصلاً لرحلات أعرق وأقدم من أمثال ابن جبير وابن بطوطة وغيرهم.

إن النطاق الزمني للرحلات المعرّف بها، يمثل في واقع الأمر مصادفة متوافقة مع هذه الدراسة. فالقرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي إذا ما عد قرن تجدد الرحلات الإسلامية، واستهلالاً للرحلات الأوربية[٦]، فإن القرن نفسه كان أيضاً قرن الاهتداء إلى البن بوصفه سلعة، والقهوة بوصفها مشروباً مستخلصاً منه. ولهذا فإن هناك تزامناً فعلياً بين ظهور هذا الوافد الطارئ الذي سرعان ما غدا الحديث عنه أمراً يستحيل الحيد عنه، وبين تكاثف الرحلات بشقيها الإسلامي العربي والأوربي على حد سواء.

وحتم هذا التوافق في واقع الأمر على فتح المجال واسعاً للجانبين، الرحالة من جهة، والقهوة من الطرف الآخر، للاستفادة مما يقدمه كل طرف للآخر. الرحالة وجدوا في القهوة حدثاً لم يكن في مخططاتهم، والقهوة بدورها وجدت في عناية الرحالة بها مجالاً

(٦) مثل: الرحالة (العرب – المسلمين)، الرحلات الغربية أيضاً كان لها تاريخها الأقدم في الترحال إلى جزيرة العرب. وقد حاول نقولا زيادة اقتفاء آثارها وقدم شواهد مبرهنة لها. رواد الشرق العربي في العصور الوسطى، (بيروت: دار لبنان للطباعة والنشر ١٩٨٦م)، ١٠٩ – ١١٠، ١٦١ – ١٧٠.

لإيجاد حيز مهم لها في ذاكرة أدبيات الرحلات هذه. ومع ارتفاع شأن الطرفين وترسخهما غدا التماس سطور عن البن والقهوة في كتب الرحلات أمراً مقضياً.

إن نمو الترابط بين أدبيات الرحلات وحديث البن والقهوة، أدى إلى أن تغدو أمثال هذه الأدبيات مصدراً لا يمكن تجاهلها للماضي في طرق القهوة ومتابعة تاريخها من الاهتداء عليها في موطنها الأم (اليمن)، ومن ثم تاريخ انتشارها السريع في جزيرة العرب والحواضر العربية - الإسلامية الواقعة في نطاق الشرق أولاً، وبعد ذلك عالمياً. وعلى الرغم من أن أدبيات الرحلات بوصفها مصدراً لتاريخ القهوة لم تحظ بالعناية اللازمة من مؤرخي القهوة، إلا أن التمعن فيما بين سطور تلك الرحلات يبين بحق أنها تخزن معلومات يصعب توافر ما يوازيها في مظان أخرى عن البن والقهوة.

بهذه المعطيات تبحر الدراسة، لتحقيق هدفها الرامي إلى تقصي ما تضمنته أدبيات الرحلات عن القهوة سواء عند الرحالة المسلمين أو نظرائهم الأوربيين. وذلك للاستفادة من المادة الغنية الواعدة المتوافرة فيها. ومن ثم المحاولة لتأطير منظومة مترابطة عن أوضاعها وتاريخها في جزيرة العرب عبر هذه الرحلات.

سبق للدراسة تقديم المسوغات لإدراج الرحلات العربية - الإسلامية ضمن منظومة الرحلات إلى الجزيرة العربية، كما سبق للدراسة الإشارة إلى تعامل مؤرخي الرحلات للرحلات الإسلامية منفصلة عن الرحلات الأوربية. إلا أن ذلك لا ينبغي أن يؤدي إلى التعامل مع الرحلات العربية - الإسلامية بالمعيار نفسه الذي عُوملت به لحينه. فهذه الرحلات تحوي - مثل نظيراتها الأوربية - معلومات عن القهوة في جزيرة العرب مما تستحق العناية بها، ومتابعتها بالقدر نفسه من الاهتمام. إذ إنه ومن خلال الفحص الأولي لهذه الرحلات يتبين احتواؤها - ليس على أقوال ومشاهدات عن القهوة في حواضر

الجزيرة ومسالكها فحسب - على دلائل أعمق فهماً عن تاريخ القهوة، وأوضاعها وظروفها، مما قدر الغربيين على تفهمها واستيعابها(٧).

الرحالة العرب - المسلمون:

من الأمور المتوقعة أن الرحالة لا يحكمون في العادة على ما يصادفونه من المشاهدات في البلدان التي يرتحلون إليها سوى بأحكام وتفسيرات مألوفة لديهم، مستمدة في الغالب من قيم مجتمعهم، ومن المتوقع أيضاً أن الرحالة يكون عادة ملماً بمعلومات أولية عن الوجهة التي يقصدها. وبهذه الفرضيات المتقدمة يسجل الرحالة مشاهداته، ولا يدفعه عن الخروج عنها إلا عندما يأتي وجهاً لوجه بأمر لم يكن يعرفه أو شيء لم يكن قد أدرجه في حسبانه. وهذه الفرضيات تنطبق تماماً على الرحالة العرب والمسلمين فيما له ارتباط بأوضاع القهوة في الجزيرة العربية ومع البلدان التي قدموا منها، فالرحالة الذين قدموا إلى الجزيرة العربية من أقطار مشرقية، عربية وإسلامية، على الرغم من توافر عدد مرض من هذه الرحلات، إلا أن المشاهدات الوصفية لهؤلاء الذين قدموا مِّن بلدان مثل مصر والشام والعراق والحواضر العثمانية تكاد تخلو أوصاف رحلتهم من الإشارة إلى القهوة أو حتى إلى المقاهي في جزيرة العرب(٨)، ولا يحتاج المرء إلى تخمين السبب فهو واضح، ويمكن رده إلى عاملين:

الأول: أن القهوة كانت معروفة في بلدان هؤلاء الرحالة، ومثلها المقاهي التي مروا عليها في مسالك رحلتهم أو التي ارتادوها في

(٧) قدم مترجم "رحلة أوليا جلبي" (الصفصافي أحمد المرسي) في مقدمة ترجمته دراسة مركزة عن الرحالة المسلمين إلى الحجاز. أوليا جلبي، الرحلة الحجازية، (القاهرة : دار الآفاق العربية د. ت)، ٩-٣٢.

(٨) مثال ذلك رحلة عبدالغني بن إسماعيل النابلسي (رحلته عام ١١٤٣هـ/ ١٧٣١م) فهو على الرغم من أنه كتب يوميات رحلته بدقة متناهية، إلا أنه لم يتطرق إلى القهوة بتاتاً، الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام والحجاز، طبع مصوراً من المخطوط بعناية أحمد عبدالمجيد هريدي (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦م).

المدينتين الشريفتين (مكة المكرمة والمدينة المنورة)، وهي لابد أنها كانت على النحو نفسه الذي عرفوه في بلدانهم، وعليه لم تمثل القهوة والمقاهي لهؤلاء مشاهدات غريبة مثيرة لفضولهم وانتباههم. كما أن الرحالة أنفسهم كانوا يدركون أن إدراج مثل تلك الأوصاف سوف لن يضيف لرحلاتهم قيمة؛ لأنها ينبغي أن تتضمن أوصافاً للغرائب، وما يمكن لهم التفرد بمشاهدته.

الثاني: أن هدف الرحالة المسلمين الأسمى - عادة - الحج والعمرة وزيارة مكة المكرمة والمدينة المنورة، وهذا الأمر من شأنه أن يرفع من مقام الرحلة من رحلة عادية إلى رحلة ذات هدف أنبل، وبسبب ذلك تنصرف اهتمامات هؤلاء إلى وصف الحرمين والمشاعر، وطرائق أدائها والمسالك المعروفة بدروب الحج. وعلى الرغم من أن بعض الرحالة يتوسعون في الخروج من هذا الإطار إلى بعض مناحي مظاهر الحياة العامة والأسواق والعادات والتقاليد، إلا أنهم قلما يجنبون في رحلاتهم مكاناً لوصف المشارب والمآكل، وذلك لتماثلها مع تلك التي في أوطانهم، كالقهوة مثلاً. ولعل من المقبول تقديم مثال على ذلك في الرحالة التركي أوليا جلبي (ولد عام ١٠٢٠هـ/١٦١١م، توفي ١٠٩٤هـ/ ١٦٨٢م)، والذي استمرت رحلاته نصف قرن: إسطنبول، بورصا، البلاد الشرقية، أرضروم وإيران، ثم عدد من البلدان الأوربية، وفي عام ١٠٨١هـ/١٦٧٠م ختم رحلاته إلى الحجاز والسودان[٩].

وفي رحلته التي نشرت باسم "الرحلة الحجازية"، وهي آخر رحلة له، صرف جلبي اهتمامه، كما هي عادة زائري مكة المكرمة والمدينة المنورة من الرحالة، لوصف المسجدين الحرمين وعمارتهما وقصور المدينتين وآبارهما وأحيائهما، كما أعطى اهتماماً لأسواقها وسبلها وأزقتها، بيد أنه في المقابل مر مروراً عابراً على وصف المظاهر

(٩) سهيل صابان، "أوليا جلبي ورحلته إلى الحجاز في أواخر القرن الحادي عشر الهجري"، (الدارة س ٢٧، ع ٣ رجب ١٤٢٢هـ)، ٦٣-٩٢.

الاجتماعية، وأهمل المآكل والمشروبات ومنها القهوة. لكن في المقابل استرعت مقاهي مكة المكرمة اهتمامه؛ لأنها فاقت في أعدادها وهيئتها مقاهي الحواضر الإسلامية الكبرى في إسطنبول والقاهرة ودمشق، وانبرى جلبي لوصف مقاهي مكة المكرمة مستهلاً "بأن مدخل مكة يحتوى على بركتين عظيمتين، وكل واحدة منهما كأنها خليج متلاطم الأمواج، يستقى منهما - لآلاف المرات - أهل مكة وحجاجها السبعين ألفاً، ومئات الآلاف من دوابها الكثيرة، إحداهما هي البركة المصرية؛ ومحيطها ثمانمئة خطوة، وعمقها ثمانية باعات، أما البركة الشامية؛ فمحيطها خمسمئة خطوة، وبعمق اثنين وعشرين ذراعاً، وفي ناحيتها الشمالية بستان نخل طيب... وفيما بين البركة المصرية والبركة الشامية هاتين يوجد أربعون مقهى، وكل واحدة منها مشحونة بخلائق البشر، ففي كل واحدة ما لا يقل عن ألف أو ألفين من الفلاحين، ولكن هذه المقاهي ليست أبنية مصنعة، بل هي مبان عادية مبنية من الأخشاب كالأكواخ، ومفروشة بحصير من سعف النخل. وعدا هذه المقاهي العادية، فإن هناك سبعين مقهى أخرى أنيقة، ومزدانة بالزخارف، والنقوش، وهذه المقاهي الأخيرة معمورة في بعضها ببعض الرواة والقصاصين، وفي بعضها عدد من المداحين والشعراء والمطربين، وفي البعض الآخر بعض المقرئين والسمار، وفي البعض الآخر بعض من الغوازي السمر، البكر، المحففين، والبعض الآخر مكتظ بالجاريات الحبشيات. هذه المقاهي تقدم أشربة كالشاي، والقهوة، والسحلب، ولبن، ومأكولات حلوة؛ مثل: المهلبية وبعض الأشربة والمأكولات الخفيفة الأخرى، وتقدم في فناجين خطائية، وفاغفورية. وفي مكة المكرمة المقاهي هذه هي مجمع العرفان والأدب"(١٠).

إن إغفال جلبي الحديث عن الظروف التي كانت القهوة تعايشها أيام رحلته في مكة المكرمة، وعنايته في المقابل بأوصاف مقاهيها

(١٠) أوليا جلبي، الرحلة الحجازية، ٢٧١-٢٧٢.

يمكن تفسيره بأن جلبي كان يعطي الأولوية لما بدا له ظواهر غير مألوفة، وأغفل في المقابل ما رآه مألوفاً. وجلبي نفسه يؤكد هذا التفسير؛ فهو عندما ذهب إلى البوسنة (سراييفو وآق حصار، في عام ١٠٧١هـ/ ١٦٦٠م)، قبل رحلته إلى مكة المكرمة، توسع هناك في التطرق إلى شؤون القهوة؛ لأن القهوة حينئذ كانت تعايش في تلك الديار ظروف الجدل الذي أثير حولها بما يذكرنا بما كان عليه حال القهوة في حواضر اليمن والحجاز ومصر والشام في مبدأ التعرف عليها(١١).

وبحلول القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي، تجاوزت القهوة العقبات التي واجهتها في موطنها الأم، والحواضر الأخرى التي بكرت بالتعرف عليها، وغدت مع مرور الوقت مشروباً مألوفاً في أغلب الديار الإسلامية المشرقية.

بيد أن المغرب العربي، وكلما توغلنا فيه غرباً وجدناه بمنأى عن وصول القهوة إليه، ولا يمكن عزو ذلك إلى بعده عن أرض القهوة في المشرق، أو لانقطاع الصلة بين الأرضين، فالتداخل الاجتماعي والاقتصادي بينهما له تاريخه المملوء بالأواصر، فالحج وهو الوسيلة الأقوى استمر في انتظامه، ولم يشهد انقطاعاً، كما أن النشاط الاقتصادي بين العالمين، ولا سيما عن طريق مصر تواصل على منواله المعروف نفسه.

(١١) يبدو أن وصول القهوة إلى مناطق البوسنة في القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي قد جدد الاهتمام الفقهي بالقهوة، كما جدد التأليف في حل القهوة وتحريمها. فمحمد م. الأرناؤوط يشير إلى مؤلف في القهوة ألفه عالم بوسني واسمه الأقحصاري باسم "رسالة حول القهوة والدخان والأشربة"، د. محمد م. الأرناؤوط، "من اليمن إلى البوسنة: التاريخ الثقافي للقهوة"، الاجتهاد، ع ٤٧-٤٨، س ١٢، صيف وخريف العام ٢٠٠٠م/١٤٢٠هـ، بيروت، ١٦٧-١٨٣.

وقد تفضل د. محمد م. الأرناؤوط مشكورًا بإهدائي تحقيقه لمؤلف مصطفى بن محمد الأقحصاري "رسالة عن القهوة والدخان والأشربة"، الذي نشره مؤخرًا بعنوان "التأليف في اللغة العربية، نموذج الأقحصاري" (الأردن: مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية والنشر والتوزيع ودار الشروق، ٢٠٠١م).

وعلى الرغم من بقاء الصلات المعروفة بين المشرق والمغرب على أسسها التقليدية الراسخة، إلا أن ما أعاق وصول المؤثرات الطارئة مثل القهوة يعود دون شك إلى الظروف الراهنة التي كانت تعاصرها المغرب، فالمغرب حينذاك كان يعايش حالة اضطراب وقلق سياسيين بسبب الهجمات الأسبانية والبرتغالية عليه(١٢). وهذا ما أدى به أن يعيش مرحلة انكفاء داخلي لا تتوافر فيه راحة البال، ورخاء المقدرة للتعرف على مشروب القهوة الطارئ، ولا سيما أن القهوة نفسها تشترط مثل هذه الشروط لترسيخ مكانتها في أي مكان تحل فيه. ولربما أدى ذلك إلى عدم تمكن القهوة من أن تحفر لنفسها مكاناً في النسيج الاجتماعي هناك. مثلما كان الحال في المشرق. فالقهوة في المغرب وبتوافر البراهين الدالة لم تعاصر الاهتداء عليها حين شيوعها في المشرق؛ حيث يقدم الرحالة المغاربة الكثير من القرائن التي تدعم الخلاص إلى مثل هذا الاستنتاج.

إن تأخر المغرب في معاصرة المشرق في الاهتداء إلى القهوة أدى إلى أن تبقى القهوة للمغاربة حدثاً غريباً ومحدثاً، في الوقت الذي كانت فيه مشروباً مألوفاً للمشرقيين. وهذا الأمر ملموس - على الأقل - في مرويات الرحالة المغاربة الذين ارتحلوا إلى المشرق، وعاينوا القهوة بالمشاهدة أو الشرب، فهؤلاء تعاملوا مع القهوة تعاملهم مع أمر طارئ وجديد عليهم، كما أبدوا تجاهها آراء عبر المشرقيون عن أمثالها في الماضي. بيد أن ما يهم هنا هو أن حداثة القهوة للرحالة المغاربة أدى بهم - على النقيض من الرحالة المشارقة - إلى الاهتمام بها، وحشد أوصاف رحلاتهم بكثير مما يفيد عن القهوة

(١٢) على الرغم من توافر عدد كبير من المعلومات التي تخص الفترة، إلا أن أحدث الدراسات في الموضوع هي دراسة: جواهر بنت سعد المطيري، التوسع الأسباني في المغرب الغربي، في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، رسالة ماجستير غير منشورة، (جامعة الملك سعود، كلية الآداب، قسم التاريخ ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م).

والمقاهي في مسالك رحلاتهم في المشرق فضلاً عن أوضاعها في المدينتين الكريمتين، على نحو لا نجده في رحلات المشارقة بسبب العوامل التي أشرنا إليها.

إن المعني بالرحالة المغاربة هنا - المخصوصين بموضوع الدراسة هذه - هم الرعيل من الرحالة المغاربة الذين ارتحلوا في رحلات الحج إلى المشرق بدءاً من القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي، وكان الأحرى تتبع الرحلات المغربية بدءاً من القرن الذي يسبقه، لكون القرن العاشر هو قرن التعرف على القهوة، ولكن فيما يبدو أن الرحلات المغربية كانت قد توقفت في ذاك القرن، واستؤنفت بنشاط متجدد بدءاً من القرن الحادي عشر الهجري، كما ينبه إلى ذلك حمد الجاسر(١٣).

إن من حسن التوافق لهذا الدراسة أن أبا سالم عبدالله بن محمد العياشي يتصدر قائمة طبقة رحالة المغرب الذين ارتحلوا إلى المشرق في الزمن المذكور. وسبب الحفاوة بالعياشي لا يعود إلى أقدميته بالنسبة إلى المغاربة فحسب، بل إلى صفته "إمام المترحلين في زماننا"، كما وصفه ابن ناصر الدرعي، وهو رحالة مغربي آخر(١٤). وتأتي أهمية العياشي من الأوصاف الرائدة التي تضمنتها رحلاته الثلاث، التي قام بها في أعوام: ١٠٥٩، ١٠٦٤، ١٠٧٢هـ، وجمع مادتها في رحلته المسماة بـ "ماء الموائد"، والتي غدت تاليًا منبعًا للآخرين من الرحالة المغاربة. فهؤلاء أخذوا كثيرًا من أوصاف رحلته الغنية، مكررين أفكاره، وما أبداه من ملحوظات متنوعة، وكذلك ما ضمنه رحلته فيما له علاقة بالقهوة والمقاهي من أوصاف في الديار التي مر بها، فالمتأمل لما أورده هؤلاء الرحالة يجدهم مقتفين أثر ما أورده

(١٣) حمد الجاسر، ملخص رحلتي ابن عبدالسلام الدرعي المغربي، (الرياض : دار الرفاعي ١٤٠٣هـ /١٩٨٣م). ويقدم الجاسر في مقدمته للرحلة دراسة وافية عن الرحلات المغربية، ١٩-٣١.

(١٤) نفسه، ٢٦.

العياشي إلا فيما انفرد به أصحابها مما لا نجده في "ماء الموائد". كما يبدو أن الرحالة المغاربة الذين جاؤوا بعد العياشي رأوا في الاهتمام الذي أبداه للقهوة، وأوضاعها في دروب حجه، وفي حواضر الحجاز نهجاً ينبغي عليهم الاقتداء به، فنجدهم يكررون وصف محطات المقاهي نفسها التي سبق للعياشي الوقوف عندها، وكأن الأمر هنا كان سعياً من هؤلاء إلى إثبات رؤيتهم لما سبق لإمام مرتحليهم رؤيته من قبل(١٥).

إن حرص العياشي على تسمية المقاهي التي توقف فيها بدءاً من السويس حتى مكة المكرمة، وإعطاء أوصاف لها، تعزز في الحقيقة من الفرضية الشائعة بين أوساط من يمكن تعريفهم بمؤرخي القهوة، بأن القهوة وقبل أن يمر زمن طويل على الاهتداء إليها كانت قد شاعت ليس في نطاق الحواضر بل في المسالك والبوادي أيضاً. وإن انتشار المقاهي بالكثرة التي ذكرها العياشي في مسالك رحلته، وتكررت أيضاً في أوصاف الرحالة المغربيين والغربيين - كما سيرد لاحقاً - تؤكد هذا الجانب. كما أن الخروج من نطاق مسالك العياشي وأقرانه من الرحالة المغربيين الآخرين، والذين عادة ما تكون مسالكهم محصورة على الساحل الغربي لجزيرة العرب الشمالي وانتهاء بمكة المكرمة، إلى نطاق الجزيرة العربية وسواحلها الأخرى، كما يرسم ذلك الرحالة الغربيون الذين سنتطرق إليهم لاحقاً، يؤكد تماماً حالة الانتشار المبكر والشامل للقهوة في جزيرة العرب.

إن إلزام العياشي نفسه بوصف المقاهي حتم عليه أيضاً أن يولي اهتماماً مماثلاً للقهوة نفسها. وتتبع ما ذكره العياشي عن القهوة يوحي حقيقة أنه أدرك أهمية هذا المشروب الطارئ الذي أحدث انقلاباً ملحوظاً في حياة المشرقيين - وشغل طبقاتهم وما يزال -

(١٥) محمد بن أحمد القبسي، أنس الساري السارب من أقطار المغارب، تحقيق: محمد الفاسي (الرباط ١٣٨٨هـ)، ٧٦. كذلك : عواطف بنت محمد يوسف النواب، كتب الرحلات في المغرب الأقصى، مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين ١١-١٢هـ، رسالة دكتوراه غير منشورة، (مكة المكرمة: جامعة أم القرى، ١٤١٢هـ).

حكاماً ومشرعين وأطباء وعامة طوال قرن التعرف عليه. وهو لهذا جنب جهداً ملحوظاً للتعريف بالقهوة، وشرح خلفية الخلاف الذي أثير حولها، وكذلك التقلبات التي مرت بها.

وإن تتبع ما عرضه العياشي عن القهوة في محطات رحلته في الحجاز يوضح مدى عمق الفهم الذي استوعبه عن تاريخ هذا المشروب. فهو يبدأ حديثه بتوجيه الانتباه إلى مدى تفشي الطرائق الصوفية في الحجاز في القرن العاشر والحادي عشر الهجريين. ومعروف أن بداية شرب القهوة كان فعلياً على يد هؤلاء، ولا سيما الشاذلية التي ترنو بأصولها إلى المغرب نفسه، ويزيد متتبعاً بأن العصر حفل بالمستجدات الأخرى التي لم يعرفها أهل القرون الأولى، مثل: ظهور القهوة، والدخان، وانتشار شربهما، الأمر الذي - على حد رأيه - استهوى علماء العصر ولا سيما الفقهاء تحديداً؛ لأنهم رأوا أنه من الواجب عليهم التدخل بإصدار الفتاوى في حلها أو حرمتها[١٦].

وعندما تبين للعياشي حب أهل مكة المكرمة وعموم أهل الحجاز لشرب القهوة، علق على ذلك منظراً: "هي من نعم الله على أهل الحجاز، لأنهم ضعفاء فقراء في الغالب، والناس يقدمون عليهم من الآفاق ولابد من قرى يقدم إليهم، وهم لا قدرة لهم على التكلف؛ لذا أصبحت القهوة وتقديمها للضيوف من العادات الضرورية؛ لأنها قليلة المؤنة، وقد ارتضاها أغنياؤهم وفقراؤهم ورؤساؤهم ومرؤوسوهم، في صيانة لوجه الفقراء عند ورود أحد عليهم؛ فأصبحت من العادات المستحبة عند أهل الحجاز"[١٧].

إذا كانت رحلة العياشي، وهي الأقرب إلى عصر التعرف على القهوة في المشرق على الرغم من التباعد الذي ينيف عن القرن بين

(١٦) عبدالله بن محمد العياشي، ماء الموائد، (تعرف بالرحلة العياشية)، (فاس ١٣٩٧هـ) ج١، ١٢١-١٢٢.

(١٧) المصدر نفسه، الصفحات نفسها. انظر كذلك: أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي، الرحلة الناصرية، (فاس ١٣٢٠هـ)، ١٣٦.

زمن الرحلة وزمن الاهتداء إلى القهوة، فقد عرف جمهور المغرب القهوة مشروباً محدثاً وطارئاً على النحو الذي رأيناه آنفاً، فإن مما يبدو أن أخبار القهوة، مثل القهوة نفسها، كانت بطيئة الوصول إلى المغرب، إذ بعد مرور تسع وأربعين سنة على رحلة العياشي، تعامل رحالة مغربي آخر، وهو أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي (١٠٥٧-١١٢٩هـ)، وكانت رحلاته الأربع إحداها سنة ١١٢١هـ[١٨]، مع القهوة بمثل ما تعامل معها العياشي قبل ما يقرب من نصف قرن. فمثل العياشي، بدأ الدرعي حديثه عن القهوة بالتعريف عن بداية ظهور البن في اليمن والحجاز، ومن ثم انتشاره إلى المشرق الإسلامي، ذاكراً أسعاره في أسواق الحواضر العربية والإسلامية، وعرج تالياً إلى التعريف بأول من صنع القهوة وشربها، ثم مضى في الحديث عن الخلافات التي نشأت حولها بين علماء مكة تحليلاً وتحريماً، ووقف عند أحمد بن محمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي السعدي، وهو عالم شافعي مكي[١٩]، كانت له فتوى في حل القهوة يبدو أنها لم تنزل محل رضا صاحبنا الذي علق قائلاً: "لكل جواد كبوة، ولكل صارم نبوة"[٢٠]، متحيزاً بذلك إلى جانب مناهضي القهوة.

وتمضي تسعون سنة أخرى، وديار المغرب لم تعرف القهوة بعد، وما زال هناك من أهلها من لم يتذوقها بعد. ونرى مثال ذلك مع درعي آخر، وهو محمد بن عبدالسلام بن عبدالله الناصري الدرعي (ت: ١٢٣٩هـ). الذي حج مرتين في عامي ١١٩٦، ١٢١١هـ[٢١]، وفي طريق حجه، وفي ينبع تحديداً يقول ذاكراً:

(١٨) حمد الجاسر، ملخص رحلتي ابن عبدالسلام الدرعي المغربي، ٢٦.

(١٩) انظر ترجمته: محمد بن عمر الطيب بافقيه، تاريخ الشحر وأخبار القرن العاشر، تحقيق: عبدالله محمد الحبشي، (بيروت : عالم الكتب، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م)، ٣٨٠ - ٣٨١. والمحبي، خلاصة الأثر، ج٢، ١٦٦ - ١٦٧.

(٢٠) أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي، الرحلة الناصرية، (فاس ١٣٢٠هـ)، ج ١، ١٢٠، ١٣٧.

(٢١) حمد الجاسر، ملخص رحلتي ابن عبدالسلام الدرعي المغربي، ٨٧.

"كثيراً ما تقدم في سفرنا هذا القهوة جرياً على عادة المشارقة، فأمتنع من شربها لمرارتها، ولأني لم آلفها، ولم تكن بأرض قومي فأجدني أعافها، مع ما يزعمون فيها من المنافع، وفي هذه الليلة، قدمها لي بعض المحبين من أهل فاس لما اعتراني وخم وكسل آخر الليل من السهر، ومزجها بسكر، فناولني كأساً فكأن ما بي من الوخم بعد شربها كأمس الدابر، وشملني من النشاط ما لم أعهد من نفسي فقلت ارتجالاً:

شربت فنجل (؟) قهوة بسكر مزجوهْ
فصح أنها لتنفي من وخم عهدوهْ
أكرم به من شراب لولا الذي أحدثوهْ
من دور كأس ببيت بزخرف موهوهْ
ونقر طار وعود وشادن ألفوهْ
بذا غدت ذات إلف لراح اغتنموهْ"

وينهي الدرعي حديثه عن القهوة، على غرار ما يفعل الآخرون من رحالة المغرب، بوصف أعشاشها الممتدة على طريق رحلتهم، ويضيف أنه سقي القهوة في ينبع من أيدي الجواري(٢٢).

وهكذا، وعلى الرغم من تأخر معرفة أهل المغرب للقهوة، إلا أن الرحالة المغاربة عوضوا تجاوز الرحالة المسلمين المشرقيين شؤون القهوة في جزيرة العرب، وقدموا على النقيض من أقرانهم الرحالة المسلمين الآخرين قدراً من المعلومات عنها. إذ لولا البعض من العناية التي لقيتها القهوة على يد الرحالة المغاربة، لربما أمكننا القول بأن الرحالة المسلمين عمداً قد غيبوا ما يمكن التعويل عليه عن أخبار

(٢٢) محمد بن عبدالسلام الناصر الدرعي، ملخص رحلتي ابن عبدالسلام الدرعي المغربي، عرض وتلخيص، حمد الجاسر، (الرياض: دار الرفاعي، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م)، ٨٧ – ٨٨.

القهوة في الجزيرة العربية، وتركوا بهذا التجاوز الميدان مفتوحاً لأقرانهم الأوربيين لينفردوا بالاستئثار بها.

الرحالة الأوربيون (الغربيون):

تلحظ العين الجديد، وتختزن الذاكرة الغريب، وقصة الرحالة الغربيين - الذين أخذت طلائعهم تتعاقب على أرض جزيرة العرب بدءاً من القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي - مع البن والقهوة كان لهذين العاملين رأي فيها. فضلاً عن عامل آخر أدى إلى إحداث ترابط عضوي بين الرحالة الأوربيين والبن والقهوة، فمع بدء وصول هؤلاء وفي القرن المشار إليه، كان البن والقهوة بذاتيهما حدثاً جديداً في الجزيرة العربية، ولهذا فإن جدة القهوة والرحلة الغربية على حد سواء، وتزامنهما بهذا التوافق أدى إلى أن يخطو الطرفان خطواتهما الأولى يداً بيد.

حينما وجّه الرحالة الغربيون وجهتهم إلى الجزيرة العربية كان عليهم التعامل مع توقعات متعددة الجوانب ملأت خيالهم المتقدم عنها، ففي الجانب الديني مثلت جزيرة العرب مركز القلب للإسلام الذي عرفه الأوربيون طويلاً، وتجددت قوته مع نمو قوة الدولة العثمانية. وفي الجانب الاجتماعي نظر إلى الجزيرة على أنها أرض العرب. وفي الجانب الاقتصادي كانت جزيرة العرب أرض الواسطة التجارية لبهارات سيلان، وتوابل الهند ومنسوجاتها، وجيد الصين وخزفه وحريره، فضلاً عن البخور والنخل والصمغ المنتج فيها. وفي الجانب التصوري مثلت الجزيرة العربية للأوربيين أرض الصحراء والجمال والخيول العربية.

إن اجتماع كل تلك المغريات في الجزيرة العربية كان دون مبالغة قوة جاذبة للمرتحل إلى أرض العرب مثلما هو سلاح إغراء للراني بأنظاره إلى الترحال واستشراف الآخر وأرضه. فمع تعدد مجالات

الاختيار، بقيت الدروب المؤدية إلى أرض العرب وشبه جزيرتهم وجهة التفضيل الذي يشهد به أعداد المرتحلين أنفسهم.

وعندما وطئت أقدام الرحالة الأوربيين شواطئ أرض العرب وصحاريها مدفوعة بالخيالات المتعددة المتقدمة عنها، كانت أرض العرب قد تهيأت لاستقبالهم بواقع طارئ لم يكن في حسبانهم مطلقاً. كانت جزيرة العرب ما تزال مالكة لكل ما عُرف عنها، بيد أنها كانت الآن تملك مغرياً جديداً تمثل في حبوب البن ومشروب مستخرج منه اسمه القهوة.

تمكن هذا الطارئ ومشتقه من الدخول باستحياء في ذاكرة الرحالة أولاً، ولكن مزاحمتهما لسجلات الرحلات توطدت مع دخول القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي، منهياً التزاحم لاحقاً إلى أشبه ما يكون بالسيادة المطلقة مع توالي الوقت. وفي هذه التقلبات كان على التوابل ومواد التجارة المشهورة التقليدية أن تحتل القوائم الثانية في قوائم سلع التجارة المتداولة. ومع اعتلاء البن تلك المكانة العليا، بدا وكأن الرحلات لا تشرع سفنها، ولا تنطلق القوافل إلا من أجله. وبهذا التلاقي بين البن والقهوة والرحالة، بدأت القصص التي تحكي الكثير، وما نحكيه هنا ليس إلا بعضاً منه.

هناك شبه اتفاق عند مؤرخي الرحلات إلى الجزيرة العربية على منح ريادة الرحلات الأوربية للرحالة الإيطالي - البرتغالي لودفيكو دي فارثيما (Ludovico De Varthema) "الحاج يونس المصري"، الذي ارتحل من لشبونة مروراً بروما إلى الجزيرة العربية، وامتدت رحلته من غرب الجزيرة للحرمين الشريفين إلى اليمن ثم الهند وشرق آسيا[٢٣]. وكان وصوله إلى مكة المكرمة عام ٩٠٨هـ/١٥٠٣م. وعلى

(٢٣) عبدالرحمن عبدالله الشيخ، لودفيكو دي فارثيما "الحاج يونس المصري": "الرحالة الإيطالي والعميل البرتغالي ورحلته إلى الأماكن المقدسة سنة ١٥٠٣م"، مجلة جامعة الملك سعود، م ٤، الآداب (٢)، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، ٥٥٧-٥٩٠.

الرغم من أن الريادة الممنوحة لفارثيما لقيت معارضة من متابع لتاريخ الرحلات البرتغالية وهو ج. إف. بكنجهام (G. F. Beckingham)، الذي لام المانحين على تجاهلهم - بقرائن مقنعة - رحالة برتغاليين سبقوا فارثيما في الوصول إلى بلاد الحرمين[٢٤]، إلا أن مجموع الرحالة البرتغاليين مع ذلك، في حال قبول طروحات بكنجهام، تتسم أسطر أوصاف رحلتهم بالفقر فيما يخص البن والقهوة.

وفيما يمكن أن نخص فيه فارثيما في هذا التقصير، فإن غياب ذكر القهوة في مرويات رحلته يعد أمراً مفهوماً بالقياس إلى الزمن الذي تمت فيه الرحلة. فهو، وعلى الرغم من أنه زار جدة ومكة المكرمة، ثم غادرها إلى جازان وأخيراً إلى اليمن، وهي أرض القهوة، فضلاً على الحواضر الأخرى التي كانت من أوائل المناطق التي عرفت القهوة، إلا أن مروره بتلك المناطق في عام ٩٠٨هـ/١٥٠٣م هو الذي لربما يشرح سبب غياب الإشارة إلى القهوة في سجلاته، وذلك لأن هذا الزمن تحديداً هو زمن مبكر نسبي لاحتمال أن يكون فارثيما ونظراؤه من الرحالة البرتغاليين قد تمكنوا فيه من رؤية القهوة أو حتى الدخول في تجربة شربها، فالراجح أن القهوة عندئذ كانت ما تزال - وهي تمر بفترة ما بعد الاهتداء إليها مباشرة - تُشرب في حلقات محدودة، ولم تكن قد عرفت الشيوع بعد. ويظن أن فارثيما[٢٥] الذي جوبه بالإعراض ولا سيما في المخا في اليمن - وهي مركز البن والقهوة - لم تنفتح أمامه الأبواب كاملة ليلج من خلالها

(24) G.F. Beckingham, Some Early Travels in Arabia, Royal Asiatic Society, 4, 1949, 155-176.

انظر كذلك ريتشارد هول، إمبراطوريات الرياح الموسمية، ترجمة: كامل يوسف حسين، (أبو ظبي: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الإستراتيجية ١٩٩٩م)، ٤٨٣ - ٤٩٥.

(٢٥) رحلات فارثيما (الحاج يونس المصري)، ترجمة وتعليق: عبدالرحمن عبدالله الشيخ، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤م)، انظر: ٤٧، ٥٢ - ٥٣، ٦٠ - ٦٨، ٧٧.

إلى الأمر الذي ما زال أمره مخفياً، مثل: القهوة، ولهذا فإن أوصاف رحلته ورحلات البرتغاليين الآخرين غلب عليها ذكر التوابل ونشاط تجارتها في جدة واليمن، ولا يستغرب ذلك؛ إذ إن التوابل كانت من أسباب اندفاع البرتغاليين إلى المشرق.

لم يترك البرتغاليون - على أية حال - ميدان رحلاتهم في جزيرة العرب، وهم خالو الوفاض تماماً من اللحاق بشيء من ذكر للقهوة. وتمثلت القصة فيما يروى أنه في عام ١٥٨٩م (٩٩٨هـ)، وعلى أثر تعرض إرسالية الجزويت البرتغالية، التي كانت قد أنشئت للتبشير في بلاد الحبشة، إلى مذبحة لم تدع إلا كاهناً واحداً على قيد الحياة، تقرر إرسال "الأبوين" مونصرات (Montserrat)، الطاعن في السن، بصحبة بائز (Paez)؛ لتجديد هذه الإرسالية، فأبحرا عام ١٥٨٩م (٩٩٨هـ) باتجاه الحبشة، ولكن سفينتهما غرقت في مياه جزيرة كوريا موريا (الملانيات)؛ فأسرهما العرب، واقتيدا إلى ظفار، ومن ثم أُخذا إلى داخل البلاد؛ لتقديمهما لسلطان الشحر، وهناك تعرف السجينان على القهوة، حيث وصفها بائز: "ماء يُغلى مع قشرة ثمرة يدعونها البن؛ لأن سكان جنوبي شرق الجزيرة العربية يستعملون القشرة لا الحب نفسه"(٢٦).

وعلى الرغم من اقتضاب الوصف، الذي يتوافق مع ما توحيه المشاهدة الأولى والعابرة، إلا أنه تعريف وصفي صحيح ودقيق، وأهميته من حيث سياق التعريف بأوصاف القهوة مهم للغاية، فهو - على حد علمنا - أول وصف للقهوة في أدبيات الرحلات الأوربية.

لم يتمكن البرتغاليون - لأسباب خارجة عن إطار موضوع الدراسة - من استكمال وجودهم في أطراف الجزيرة العربية، ومواصلة

(٢٦) جاكلين بيرين، اكتشاف جزيرة العرب، ٦٢-٦٣.

G. F. Beckingham, Some Early Travels in Arabia, JRAS (October 1949), 172-173.

الاهتمام بقضايا مثل قضية القهوة. وعلى الرغم من أن تجارة البن كانت في أواخر أيام الوجود البرتغالي في المنطقة قد كسبت مكانة ليس من السهل تجاوزها، كما شاع شرب القهوة بصورة مطردة، إلا أن أواخر الرحالة البرتغاليين، كما يحدد بكنجهام نشاطهم، آثروا الخروج من الميدان تاركين أمر مواصلة الاهتمام بالبن والقهوة لغيرهم(٢٧).

وبانقضاء الوجود البرتغالي في جزيرة العرب، وغياب الأسبان من الميدان أصلاً، خلا الميدان واسعاً للهولنديين والإنجليز والفرنسيين الذين نزلوا الميدان لاحقاً. ولكن دون الطموحات السياسية والدينية التي سبقت الأهداف البرتغالية في شواطئ جزيرة العرب، غلّب القادمون الجدد الأهداف الاقتصادية الواضحة المدعومة من الاتحادات النقابية والشركات الرأسمالية الكبرى ذات الفاعلية التجارية المرسومة، والخبرات الطموحة في مواطنها الأم أو على النطاق الدولي.

تجسدت أهداف هؤلاء البحارة العالمين في إنشاء القواعد التجارية أولاً، وكان من تحقيق غاياتهم إنشاء الهولنديين الشركة الهولندية للهند الشرقية عام ١٠١١هـ/١٦٠٢م. وقابلهم الإنجليز بتأسيس شركة الهند الشرقية. وبتصاعد نشاط الشركتين استقبلت موانئ عدن والمخا والشحر وقشن والحديدة أوائل السفن الهولندية، تحديداً من العام ١٠٢٣هـ/١٦١٤م، معلنة دخول هذه الموانئ في نطاق التجارة العالمية التي كانت سائدة عندئذ عالمياً.

لا يمكن القول - على أية حال - بأن تجارة البن في بداية ازدهارها كانت عماد التداول التجاري، بيد أنه من الممكن القول: إن قوائم البن - مع ذلك - كانت عالية في السجلات التجارية، بل متصدرة للقوائم في معظم قوائم السجلات التجارية ما بين النصف الثاني

(٢٧) ليونارد باتريك هارفي، تاريخ الموريسكيين السياسي والاجتماعي والثقافي، ٣٤٦ - ٣٥١. عباس حمداني، الإطار الإسلامي للرحلات الاستكشافية، ٣٥٨ - ٤١١. الحضارة العربية والإسلامية في الأندلس، ج١، تحرير: سلمى الخضراء الجيوسي، (بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ١٩٩٨م)، ٢١١-٢٣٦.

والأول من القرنين ١١-١٢هـ/١٧-١٨م. وعليه، فإذا كان البن قد أحرز مثل هذا النشاط المفعم، فإن المتوقع أن المعلومات المتعلقة به وبالقهوة أيضاً تحرز طفرة معلوماتية مماثلة. بيد أن مثل تلك التوقعات لم تكن محل الآمال المعقودة عليها. صحيح أن السجلات التجارية حوت قوائم رقمية عن تجارة البن السائدة، ولكن كان هناك أيضاً غياب مخيب للمعلومات العفوية والوصفية عن القهوة مثل تلك التي نجدها عادة في أوصاف الرحالة التقليديين.

ولا يبعد أن يكون السبب هو أن جزيرة العرب خلال تلك الحقب لم تستقبل رحالة، بل استقبلت تجاراً وممثلي شركات لم يكن ضمن أهدافهم رصد وتسجيل معلومات عفوية عن مشاهداتهم، بقدر ما كان هدفهم منصباً لإعداد تقارير تجارية رسمية لأنشطتهم المتماشية مع مخططات الشركات التي ينتمون إليها. لذا تواصلت المعلومات المتعلقة بالقهوة بصورة لا تختلف عن تلك المعلومات المقتضبة التي دونها أواخر الرحالة البرتغاليين. وهو أمر تشرحه أسبابه، إذ لم يكن متوقعاً من مندوبي شركات تجارية تبحر من أمستردام إلى المخا، أو من ليفربول إلى عدن، أن يكونوا عفويين في تدوين مشاهداتهم، بل المتوقع أن تأتي أوصافهم على هيئة سجلات رسمية أو تقارير توثق أنشطة شركاتهم. والبن بهذا المعيار كان محكوماً عليه الاندراج في قوائم السلع التجارية، وليس النظر إليه بانفراد.

وتتمثل هذه الصفة بوضوح في بيتر فن دن بروكه (Peter van den Broeck) الذي أرسله الحاكم الهولندي العام في الهند عام ١٠٣٠هـ/١٦٢٠م إلى جنوب الجزيرة العربية لتأسيس أول محطة تجارية هولندية[٢٨]، وقد أتيح لبروكه - بسبب مهماته الرسمية - أن يرتحل في اليمن زمناً.

(٢٨) اليمن في أوائل القرن السابع عشر، مقتطفات من الوثائق الهولندية المتعلقة بالتاريخ الاقتصادي لجنوب الجزيرة العربية ١٦١٤ - ١٦٣٠م. اختيار وتعريب: ك. خ. براور د آ. كبلانيان، (ليدن: شركة أ. ي. بريل للنشر ١٩٨٨م). ٨، ٦٨، ٨٧، ١٤٣، ١٦٣، ٢١٨-٢١٩.

وفي خلال رحلته لم يلتفت إلى شأن القهوة إلا لماماً، ففي طريقه إلى المخا لمقابلة حاكمها أشار إلى بيت تباع فيه القهوة (مقهى)، وعندما أراد أن يعرِّف القهوة، قال معرفاً: "إنها نوع من الحبوب السوداء التي يصنع منها سائل أسود يشرب حاراً"[٢٩]، وتضيف جاكلين بيرين إلى ذلك معلقة: "إن بروكه لم ير أشجار البن أثناء تجواله في اليمن... ولو فكر في رؤيتها لما تمكن من رؤية أي شيء غير رؤية مزارع البن"[٣٠].

وعلى الرغم من ارتفاع استيراد البن اليمني إلى هولندا من أربعين بالة عام ١٠٤٣هـ/١٦٣٣م إلى كمية عالية رشحت ميناء أمستردام لأن يغدو واحداً من مراكز تجارة البن في أوربا، كما يرصد سجلاته كريستوف جالامن (Kristof Glamann) ضمن توثيقه للتجارة الهولندية الآسيوية في القرنين ١٨/١٧م (١٢/١١هـ)[٣١]، إلا أنه وفيما يخص حديث القهوة ظلت سجلات الهولنديين عنها في اليمن على القدر نفسه الذي كان عليه في عهود الرحالة البرتغاليين. ولعل التفسير الأقرب لهذا التصور المنافي للتوقع يمكن إرجاعه إلى أن الهولنديين لم ينظروا للبن والقهوة إلا من خلال تجارتهم الواسعة التي تشمل جميع السلع التجارية الآسيوية الأخرى، التي كان من قوائمها فناجيل القهوة الخزفية التي كانت تستورد من الصين[٣٢].

إن الإنجليز الأوائل الذين وصلوا إلى شواطئ اليمن - وبسبب التماثل بين أفكارهم المسبقة وأفكار الهولنديين - لم يتركوا - مثلهم - ما يعول عليه فيما يخص القهوة. وكانت طلائع السفن الإنجليزية قد

---

(٢٩) نفسه. ٨٦/٦٩-٨٧.

(٣٠) جاكلين بيرين، اكتشاف جزيرة العرب، ٨١.

(31) Kristof Glamann, Dutch - Asiatic Trade, 1620-1740, (Copenhagen: Danish Science Press 1950), 182-211.

(٣٢) اليمن في أوائل القرن السابع عشر، ١٤٣.

ظهرت على شواطئ عدن عام ١٠١٨هـ/١٦٠٩م بسفينتين يقودهما ألكسندر شاربية، والوكيل التجاري الرئيس فيهما جون جورداين(٣٣). وفي اليمن افترق الاثنان؛ رحل شاربية إلى المخا؛ لعلمه بإمكاناتها التجارية النامية على حساب عدن التي كانت تمر بمرحلة اضمحلال تجاري، وعلى الرغم من أن ازدهار المخا حينه كان يعود إلى انتعاش تجارة القهوة فيها مع جدة والسويس، إلا أن شاربية لا يسجل شيئاً في هذا الجانب، أما جورداين الذي كان عليه الذهاب إلى صنعاء لمقابلة حاكمها، فقد مر بمدينة إب، وهناك اكتشف زراعة البن، وعلم أن حبوب البن بضاعة تجارية عظيمة؛ لأنها كانت تشحن إلى القاهرة وإلى جميع مدن تركيا وبلاد الهند(٣٤). ونظراً لأن البن لم يكن قد انفتح سوقه في لندن، فإن شاربية والمتاجرين به من التجار الإنجليز لم يظهروا اهتماماً كثيراً به، والكمية التي استهلوا تجارتهم بها لم تصرف مثل الكمية التي جلبها الهولنديون إلى وطنهم الأم، بل تاجروا بها في أسواق إيران والهند المغولية(٣٥). وتشير الدلائل إلى أن الهولنديين أنفسهم تعرضوا لمثل ما تعرض له الإنجليز في مستهل دخولهم في تجارة البن، عندما كان البن ما يزال سلعة غير معروفة في هولندا. فقد جلب أحد القباطنة المغامرين عشرين بالة من البن إلى ميناء أمستردام، وواجه صعوبة في بيعها. وعلى الرغم من أنه غير معروف متى كان ذلك تحديداً، إلا أن الأرجح أنه كان في زمن مبكر لعصور دخول الهولنديين في تجارة البن، ولأن البالات كانت تحوي بناً من المخا مما لم يكن معروفاً في أوربا، إذ لم يسبق أن حاول تاجر هولندي جلب مثله إلى بلده، فإن تمكن القبطان من

(٣٣) جاكلين بيرين، اكتشاف جزيرة العرب، ٧٣.

(٣٤) نفسه، ٧٥. انظر كذلك : بيتر برنيث، بلاد العرب القاصية، رحلات المستشرقين إلى بلاد العرب، ٧٣ – ٧٥.

(35) Antony Wild, the East India Company Book of Coffee, (Rome K 1994), 14.

تصريف تلك البالات في آخر الأمر كان سبباً - كما يقول بيتر برنيث - في وقوع أوربا في غرام تلك الحبوب[٣٦].

بدأت اهتمامات الفرنسيين بتجارة الشرق متأخرة عن الهولنديين والإنجليز، وكان ذلك على وجه التقريب خلال النصف الثاني من القرن ١١هـ/ ١٧م، وتحديداً عام ١٠٧١هـ/١٦٦٠م، وذلك عندما عَيَّن الملك الفرنسي لويس الرابع عشر دي آرفيو قنصلاً لفرنسا في صيدا للتوسط مع بدو سيناء؛ لإعادة رهبان دير الكرميليت إلى ديارهم التي كانوا قد طردوا منه، ولأنه كان يتكلم العربية ويرتدي ملابسهم، فقد ارتحل آرفيو إلى مضارب البدو، ومثلما فعل القس البرتغالي بائز في ظفار، أشار آرفيو إلى شربه القهوة عند مستقبليه البدو في إطار واقعة شرف تتعلق بابنة شيخ القبيلة، خلواً من وصف القهوة أو التعريف بها[٣٧]. وإن كان الوصف يعد أول إشارة للقهوة في أدبيات الرحلات الفرنسية.

ارتبطت في الحقيقة بدايات تعرف الفرنسيين على القهوة في الجزيرة العربية بالرحالة وليس بالتجار كما كان الحال مع الهولنديين وأوائل الإنجليز. وهناك نفر من الرحالة الفرنسيين الذين تدرج أسماؤهم ضمن الرحالة المبكرين لجزيرة العرب، مثل: دي لاجر بلودير وباربير، بيد أنه لا يمكن تفنيد ما قالوه عن القهوة وشؤونها، وذلك لعدم نشر أوصاف رحلتهم بصورة مفصلة[٣٨].

إن الرحلات الفرنسية إلى الجزيرة العربية وما فيها من ذكر عن القهوة شهدت - على أية حال - منعطفاً بارزاً على يد الرحالة الفرنسي والتاجر في الوقت نفسه دي. لاروك (De La Roque)، الذي

(٣٦) بيتر برنيث، بلاد العرب القاصية، رحلات المستشرقين إلى بلاد العرب، ٧٣.
(٣٧) نفسه، ٧٥.
(٣٨) نفسه، ٨١.

نشر رحلته في أمستردام عام ١٧١٦م (١١٢٨هـ)[٣٩]. وكانت بداية الرحلة نفسها عام ١١١٧هـ/١٧٠٨م، وامتدت إلى ما بعد ذلك بما ينيف عن السنتين، وهذا التاريخ يمكن النظر إليه على أنه كان بداية للعصر الذهبي لتجارة البن في اليمن أيضاً، حسبما يتعارف على ذلك المتابعون لتاريخ تجارة البن، وطفرة الانتشار في شرب القهوة عالمياً. ولعل الجانب الأهم في هذه الرحلة التي تمت بمباركة من الحكومة الفرنسية نفسها، أن هدفها الأساس كان الحصول على البن ولا شيء إلى جانب ذلك من مصدره الأم في اليمن. ويوضح دي. لاروك ذلك في رسالته التي رفعها إلى الكونت ليون شارتران - ممول الرحلة - في ١٥ مايو ١٧١٥م (٢٤ جمادى الأولى ١١٢٨هـ)، والتي تصدرت مقدمة الرحلة:

"وبناء على ذلك - يا مولاي - فالفضل يعود لكم في أحد جوانبه في أننا نحظى بمخزون وافر من ثمرة البن لا ينتجها إلا بلد واحد في العالم بأسره (اليمن)، ولا غنى لفرنسا عنها بأي حال من الأحوال (البن)"[٤٠].

إن تلاقي هدف الرحلة مع معاصرة اليمن لانطلاقة عصر الذروة في تجارة البن يشكل في الواقع المحور الأساس لرحلة دي.لاروك. والرحلة تتكون أصلاً من مجموع خمسة تقارير دوَّنها بحارة فرنسيون تقاربت رحلاتهم إلى اليمن من تاريخ رحلة دي.لاروك، ملحقا بها رحلة الأخير نفسه. وقد قام دي.لاروك، الذي كان يملك مقدرة في هذا الجانب بتحرير الرحلات مجدداً بهدف رفعها في تقرير موحد إلى السلطات الفرنسية. والرحلة التي نسبت بكاملها إلى دي.لاروك هي في الحقيقة سجل تاريخي مفصل للنشاط البحري الفرنسي

(٣٩) نشرت الرحلة باسم (Voyage de L'Arabie Heureuse)، ونشرت بالعربية مترجمة عن الإنجليزية بعنوان: دي. لاروك، رحلة إلى العربية السعيدة عبر المحيط الشرقي ومضايق البحر الأحمر، ترجمة: صالح محمد علي، (أبو ظبي: المجمع الثقافي ١٩٩٩م).

(٤٠) نفسه، ٧.

للحصول على البن في موطنه في اليمن مباشرة، وهي كذلك إعلان على تمكن الفرنسيين من ذلك على الرغم من المنافسة العثمانية والهولندية والإنجليزية. واحتواء الرحلة على عدد هائل من المعلومات عن البن، ولا سيما التقرير الملحق بها، أكسبها اعترافاً وحظوة بين مؤرخي القهوة، وإن لم تنل اهتماماً مماثلاً عند الكثير من مؤرخي الرحلات إلى الجزيرة العربية.

ليس من السهل اختزال ما تحويه رحلة دي.لاروك عن البن والقهوة، والاكتفاء بالشواهد والشذرات قد لا يكون مرضياً، وأية محاولة بهذا الصدد قد تكون صورتها أقرب إلى صورة منع القهوة من شاربها إلا من رشفة غير كافية لإطفاء نهمه منها، ولكن قد يكون الأمر مقبولاً ومعوضاً إذا ما تم تقديم الجرعات مرة بعد مرة.

لا يخفي دي. لاروك فخره من اللجوء إلى القرصنة لاحتواء منافسيه الهولنديين والإنجليز في سعيهم إلى الوصول إلى المخا، والاستئثار بمحصولها من البن المعروض للتصدير، ولا تتنافى مثل هذه الأعمال مع كون دي.لاروك تاجراً ودبلوماسياً موالياً لفرنسا وملكها في الوقت نفسه[٤١]. ويفهم الأمر أن مثل تلك الأعمال كانت من القيم المقبولة في ظل اشتداد التنافس بين القوى البحرية التجارية الأوربية على تجارة الشرق، فلقد لجأ الهولنديون والإنجليز إلى مثلها متى ما شعروا بالضرورة إليها لصالحهم، وأحياناً بتوجيه من مسؤولي شركاتهم[٤٢]. ويسوغ دي. لاروك لجوءه للقرصنة بأنه كان يهدف منها الحصول على البن من اليمن دون وسيط تجاري، وتقليل الاستمرار على حصول الفرنسيين على حاجتهم منه من الأتراك والإنجليز والهولنديين.

(٤١) دي. لاروك، رحلة إلى العربية السعيدة، ١٧.

(42) Antony Wild, The East India Company Book of Coffee, 6.

في عدن، يستهل دي. لاروك حديثه عن القهوة للمرة الأولى ذاكراً أن سلطانها أكرمه (بالقهوة السلطانية)، ويمضي متابعاً بأن السلطان حثه ومرافقيه على الاتجار مع حكومته مشيداً بما ينتجونه من بن وافر وممتاز. ويختم الحديث بأنه طلب من السلطان مشروباً بدلاً من القهوة السلطانية التي أكثر من تناولها؛ معللا بـ"أننا لم نكن قد اعتدنا شربها بهذه الكثرة"(٤٣).

وفي التقرير الرابع من الرحلة، وفي آخر خطاب إلى المسؤول الفرنسي يشرح دي. لاروك سبب تقديمه تعريفاً عن بلاد اليمن وحكامها من الأشراف:

سيدي – وزير خارجية فرنسا "أعود الآن إلى المقصد الرئيسي من رحلتنا، والذي كان لشراء البن ونقله إلى أوربا. ولهذا السبب ربما يكون من الضروري أن أعطيكم بعض المعلومات عن البلاد التي تنتج هذه السلعة العزيزة المنال التي تحظى بهذا القدر من السعي للحصول عليها، وعليها هذا القدر من الطلب"(٤٤).

وبهذه التوطئة، يمضي دي. لاروك بالتعريف ببلاد القهوة مفنداً بأن "مملكة اليمن هي البلاد الوحيدة بين جميع ممالك شبه الجزيرة العربية التي تنتج البن". والبن عموماً قليل الإنتاج فيما عدا الأقسام الثلاثة الرئيسة؛ وهي بيت الفقيه وصنعاء وحجانة (نسبة إلى مدن الجبال). ويذكر دي. لاروك أنه تمكن من الحصول على بُن حجانة وصنعاء، ولكن لا يحظى أي منهما بالتقدير الذي يحظى به بُن بيت الفقيه(٤٥).

وفي استهلال أوصاف رحلته في بلاد اليمن حوالي ١١٢١هـ/١٧٠٩م، يبدأ دي.لاروك حديثه عن بيت الفقيه مركز تجارة

(٤٣) دي. لاروك، ١٧، ٤١، ٤٢.
(٤٤) نفسه، ٧٥.
(٤٥) نفسه، ٧٦.

البن في اليمن، قائلاً: "إنه يوجد في هذه المدينة سوق واسعة للبن تحتل قاعتين عظيمتين، يأتيها العرب من جميع أنحاء الجزيرة العربية بجمالهم المحملة بخرجين من الحصير المعلق على جانبيها، حيث يحمل الجمل اثنين منه. وتقام السوق كعادتها يوم الجمعة بعد الصلاة، حيث يكون الحاكم (نائب حاكم المخا) حاضراً ومعه رجال الجمارك[٤٦].

وفي سوق بيت الفقيه "تتعرف البعثة التجارية الفرنسية على حيوية التعامل في البن بوصفها المركز التجاري للبن عالمياً، كما تشهد وجود مندوبي الأسواق العالمية من تجار البن. ويفحص لاروك بصورة خاصة وجود الأتراك، الذين عادة ما يحصلون على حاجتهم من البن من مصر وليس من اليمن، ولكن فيما يبدو أن الأتراك غدوا غير راضين عن نصيبهم الآتي من مصر، بل أخذوا يأتون إلى اليمن طلباً للمزيد من البن الذي يحملونه براً على الجمال إلى جدة ومنها بحراً إلى مصر ثم إلى بلادهم. ويلمح دي. لاروك إلى أن الفرنسيين كانوا مثل الأتراك يرضون حاجتهم من البن من مصر، لكن وصول بعثته إلى بيت الفقيه، واشتراءهم كميات كبيرة من البن المعروض للبيع أدى إلى ارتفاع أسعاره في سوقه[٤٧].

ويبدو أن شراء الفرنسيين أغلب بن بيت الفقيه، حمولة ثلاث سفن كبيرة، وبقيمة تتجاوز المئة ألف قرش، أدى إلى نيلهم الحظوة لدى حاكم المخا وصنعاء على من عداهم من الوسطاء التجاريين، وأدى ذلك إلى منحهم امتيازات تجارية مفضلة وتوقيع معاهدات خاصة معهم[٤٨].

(٤٦) نفسه، ٧٦،٧٧.
(٤٧) نفسه، ٧٨.
(٤٨) نفسه، ٩٥.

إن المدة الزمنية الطويلة نسبياً التي قضتها البعثة في اليمن، من ١١٢٣هـ/١٨١١م حتى ١١٢٥هـ/١٨١٣م، أكسبت رحلة دي. لاروك ثبات قدم، ومعرفة بأرض اليمن، وكذلك خبرة بتجارة البن النشطة فيها.

وقامت البعثة في أثناء الرحلة بجولات موسعة في نواحي اليمن، وتغلغلت في عمق بلاد البن في تعز وحصن المواهب، وهناك تمكنت البعثة من توسيع أنظارها برؤية أشجار البن. ويكتب دي.لاروك عن تلك التجربة التي لم يسبقه عليها لحينه أحد من الرحالة الأوربيين: "أنها كانت المرة الأولى التي يرون فيها أياً من تلك الأشجار، والتي كانت أجمل ما هو مزروع منها في اليمن وأفضلها، وكانت تملأ وديان المنطقة وسفوحها"(٤٩).

في "حصن المواهب"، وفي ذمار قابلت البعثة إمام اليمن شخصياً، وبعد أن شربت البعثة القهوة السلطانية في مجلسه، صحبهم الإمام إلى بستانه؛ لإطلاعهم على أجود الأنواع المزروعة فيه من شجر البن، وعرفوا هناك أن الإمام يعنى بها بنفسه.

علمت بعثة دي.لاروك في حصن المواهب بوصول مبعوث السلطان العثماني لمقابلة الإمام، وعلى الرغم من أن الهدف الذي أعلن عن مجيء المبعوث، على رأي دي.لاروك، كان من أجل تجديد الصداقة والعلاقات بين العاهلين المسلمين، إلا أن الهدف الحقيقي كان تجارياً، ومن أجل البن تحديداً، إذ أفصح المبعوث عن ذلك بأن البن قد تعاظمت قدرته، وارتفعت أسعاره في مصر وتركيا منذ أن جاء الأوربيون إلى البحرالأحمر، وحملوا مراكب كبيرة به، مما أضر كثيرا برعايا السلطان، وأدى إلى تقليص جماركه(٥٠).

ما تلا ذلك كان مثيراً، ومبعث الإثارة أن قصة دي. لاروك عكست تماماً مدى تصاعد التنافس الدولي على البن، وكذلك طبيعة العلاقة

(٤٩) نفسه، ١٣٣، ١٣٩.

(٥٠) نفسه، ١٤٧.

القائمة بين اليمن والقسطنطينية، عندما مضى دي. لاروك متمماً: "كان إمام اليمن غير مسرور من محاولة مبعوث السلطان العثماني الذي كان يحاول فيما يبدو أن يضع بعض القيود على سلطته وسيادته، ولهذا كان يبدو راغباً في توديع هذا الوزير بأسرع ما يمكن"(٥١).

ويضيف لاروك بأن ردة فعل الإمام لمحاولة السلطان العثماني تجلت في شحن السفن الفرنسية بأكبر قدر من البن يمكن لسفنهم نقله، وبسعر قريب جداً من سعر الرحلة الأولى. ويمضي لاروك قائلاً: إن الإمام استفسر فيما إذا كان ممكناً أن يرسل خمسمئة بالة من أجود أصناف البن من مملكته هدية منه لملك فرنسا، الأمر الذي يقول لاروك إنه لم يقبل بها لأنه لا يملك إذناً من البلاط لتسلم مثل تلك الهدية(٥٢). وينهي لاروك تقرير رحلته بالإشارة إلى ظهور المخا مركزاً لتجارة البن في اليمن على حساب عدن، ومكانتها التجارية الماضية.

وإذا كان ممكناً تقديم ومضات منتقاة من رحلة دي. لاروك عن البن والقهوة، فإن تكرار المحاولة مع ملحق الرحلة سيكون صعباً. ومكمن الصعوبة ناتج من طبيعة التقرير نفسه، فهو مركز تركيزاً يجعل من الصعب اقتطاف عناصر منه، كما أن أسطره مفعمة بتفصيلات في غاية الدقة عن القهوة وتاريخها، فضلاً عن أنه متخم بالأقوال والشواهد. ونظراً لاستحالة الاقتباسات الطويلة منه، وعلى الرغم من الصعوبة القائمة، إلا أننا نحاول وبالطريقة نفسها التي قدمنا بها عناصر الرحلة أن نلتمس المحاولة مرة أخرى.

يبدأ دي. لاروك تقريره بالتعريف بشكل شجرة البن ووصف أجزائها، ثم ينتقل إلى وصف إعداد القهوة مميزاً بين قهوة القشر (القهوة السلطانية) وقهوة البن الشائعة خارج اليمن. ثم ينتقل

(٥١) نفسه، ١٤٧.

(٥٢) نفسه، ١٤٩.

الحديث إلى الإطار العالمي للقهوة، انتشار القهوة في آسيا وأوربا، ونمو تجارة البن، يعقبه متابعة تاريخية عن كيفية وصول البن إلى فرنسا. ولعل الجانب الملفت للنظر في التقرير، إلمام دي.لاروك بما كتب عن القهوة في مصادرها العربية، فهو يعود إلى أدبيات القهوة العربية في متابعته التاريخية والفقهية والطبية للقهوة. وفي هذا الجانب يوظف دي.لاروك القضايا التي طرحت حول القهوة في موطنها الأصلي في تلك الأدبيات بصورة لم تفعلها الأدبيات العربية نفسها. وعلى غرار الأدبيات العربية أيضاً يختم تقريره بإيراد أقوال وطُرف وقصص قيلت مع انتشار القهوة ليس في نطاق حدودها العربية - الإسلامية فحسب، وإنما على النطاق العالمي أيضاً(٥٣).

ولعل ما ينبغي التنبيه إليه هنا أن المعلومات الوافرة التي يعرضها دي.لاروك، سواء في ثنايا رحلته أو في ملحقها قد تكون مطروحة سلفًا في أدبيات القهوة العربية ومعروفة لقرائها، وبالأخص لهؤلاء المتمرسين في شؤونها، بيد أن ما ينبغي قوله هو: إن لاروك لم يكن يصيغ رحلته وفي باله أمثال هؤلاء القراء، بل كان يشغله تقديم هذه المعلومات للقارئ الأوربي. فالقهوة مثلما امتلكت شغاف الشاربين الأوربيين، فإنها بقدر مساو اكتسبت جمهورًا من الفضوليين الراغبين في معرفة أسرارها. وبهذا المنظور ينبغي أن نقيم المعلومات التي تملأ أسطر رحلة دي. لاروك عن القهوة، كما لا ينبغي أن يغيب عن أذهاننا المنظور الزمني للرحلة أيضاً.

(٥٣) دي. لاروك، تقرير عن شجرة البن وثمرتها، تم جمعه من ملحوظات المشاركين في الرحلة الأخيرة إلى العربية السعيدة، ١٥٥ - ١٧١، بحث تاريخي عن الاستخدام الأول للبن، ١٧٣ - ٢١٨. وتشير جاكلين بيرين، التي تُعَدّ من القلة من بين مؤرخي الرحلات للجزيرة العربية التي اعترفت بمكانة لاروك بين الرحالة، أن دي. لاروك كان ابن رحالة معروف من مرسيليا، وهو الذي أتى بالبن إلى فرنسا لاستعماله الخاص منذ سنة ١٦٤٤م (١٠٥٤هـ). ولعل هذه المعلومة تساعدنا على فهم ولع الابن بالقهوة، اكتشاف جزيرة العرب، ١٠٤ - ١١٦.

إن منطق العلاقة الحتمية بين الفعل وسببه، تغري الدراسة البحث عن الرحالة الهولنديين والإنجليز، فهؤلاء من المتوقع أنهم كانوا يشاطرون الفرنسي دي. لاروك نشاطه الترحالي في جزيرة العرب في تلك الحقب. بيد أن التلازم السببي لم يكن محفزاً للرحالة الهولنديين ولا الإنجليز لشد الرحال اتباعاً لطموحات دولهم إلى جزيرة العرب. وقد عوض غيابهم رحالة من بلدان أوربية أخرى، ممن يمكن النظر إليهم على أنَّهم طارئون في هذه المعادلة.

وكان من أبرز هؤلاء الطارئين، الرحالة الدنمركي كارستن نيبور(Carsten Niebouhr) الذي أرسله ملك الدنمارك فردريك الخامس إلى جزيرة العرب في بعثة علمية مكونة من خمسة أفراد من ذوي التخصصات المختلفة. انطلقت البعثة من كوبنهاجن في أكتوبر ١٧٥٩م (١١٧٢هـ)، ووصلت جدة قادمة من السويس عام ١١٧٦هـ/١٧٦٢م(٥٤).

تحتل رحلة نيبور ورفقائه مكانة متميزة في أدبيات الرحلات الأوربية لجزيرة العرب؛ وذلك لريادتها التاريخية والعلمية على حد سواء(٥٥)، وقد أدى الاهتمام بنيبور إلى كيل الألقاب له؛ فهو يوصف بالمغامر مرة، والرائد تارة أخرى، وهناك من يطلق عليه لقب أب الرحالة الرومانسيين. واحتواء رحلة نيبور كل تلك العناصر مجتمعة أدى بآخرين إلى تصنيف مؤلفات عنه وعن رحلته، لا تقل أهمية عن الرحلة نفسها(٥٦).

بعد زمن قصير في جدة (ستة أسابيع)، استقل نيبور ورفقاؤه مركباً عمانياً إلى اليمن السعيدة. إن إبحار نيبور على هذا المركب

---

(٥٤) روبن بدول، الرحالة الغربيون في الجزيرة العربية، ١٧ – ٣٥.

(55) C.Niebouhr, Travels through Arabia and other Countries in the East, Trans: Robert Herron, vols I, II. (Edinburgh) 1792.

(٥٦) انظر مثلاً: توركيل هانسن، من كوبنهاجن إلى صنعاء، ترجمة: محمد أحمد الرعدي (بيروت: دار العودة، ١٩٨٣م) أيضاً. أحمد قايد الصايدي، المادة التاريخية في كتابات "نيبور" عن اليمن، (بيروت : دار الفكر، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م).

تحديداً يمثل في الحقيقة بداية الرمز الذي أدخله إلى عالم القهوة في الجزيرة العربية، فضلاً عن أنها كانت مصادفة فتحت عينيه على تبادل الأدوار التي كانت قائمة بين مناطق الجزيرة في تسيير تجارة البن. فالمركب كان مركباً عمانياً، والمراكب العمانية كانت نشطة في نقل البن اليمني إلى جدة ومسقط، ولقيامها بهذه المسؤولية أطلق على المراكب العمانية اسم "مراكب القهوة". ويصف توركيل هانس صورة ما حصل قائلاً: "وفي إحدى الأمسيات بعد وقت من هبوب الرياح الجنوبية ظهرت في الأفق السفينة (العجيبة) التي ستحملهم (بعثة نيبور) في آخر مرحلة من مراحل سفرهم إلى اليمن السعيدة. ولم يكن من المألوف أن تقوم هذه السفينة بنقل المسافرين، فهي خاصة بنقل البن لبلادها مسقط، وقد وصلت جدة محملة ببن من اليمن، تحديداً من المخا باليمن السعيد، وهي راجعة الآن لتحصل على حمولة جديدة تعود بها هذه المرة إلى موطنها مسقط"(٥٧).

وكان نيبور في السويس قبل إبحاره إلى جدة، قد لحظ أن السفن كانت تبحر من هناك محملة بالقمح والأرز والعدس والفول والتباك والصابون والكتان وقضبان الحديد وغيرها، وتعود محملة بشكل أساسي بالبن اليمني معبأ في صناديق من الخشب كما تحمل أيضاً البخور بكميات قليلة(٥٨). ومن هذه الأوصاف تتكون شكل صورة مقاسمة الأدوار في تجارة البن في البحر الأحمر، المصدر اليمن، والناقل السفن العمانية، ومركز التبادل بين اليمن ومصر، جدة، ومصر (أخيراً) للتجارة العالمية في المتوسط بعد ذلك.

نيبور الذي قال: إنه تمكن في جدة أن يرتاد أماكن شرب القهوة (المقاهي) دون مواجهة أي إزعاج أو مضايقة بينما كان ينتظر هبوب الرياح الجنوبية التي ستأتي معها السفينة التي تحمله إلى بلاد

(٥٧) توركيل هانسن، من كوبنهاجن إلى صنعاء، ٢٠٦ – ٢٠٧.
(٥٨) نفسه، ١٧٨ – ١٧٩.

القهوة، انطلق إلى اليمن بالوسيلة نفسها التي كانت تجارة البن تعتمد عليها في البحر الأحمر، متنقلاً بين مراكزها الثلاثة، مصر وجدة والمخا بالوسيلة المخصصة لها، وهي السفن العمانية.

بعد السنة الجديدة من عام ١٧٦٣م (١١٧٦هـ) بأيام وصلت البعثة إلى اللحية ومنذ دخولها أرض اليمن بدأ يتبين لها أن عصر اللبان والبخور والبلسم قد ولَّى، وأن العصر التجاري والطلب الآن للقهوة والتنباك. وعليه فقد تبدلت أولويات الرحالة إلى متابعة هذا الطارئ الجديد. وبمقارنة ما سيورده نيبور ورفقاؤه عن البن والقهوة بما سبق أن سجله دي. لاروك في رحلته، يمكن تمييز الفارق بأن لاروك غلب على اهتمامه الجانب التجاري للبن، بينما انصب اهتمام بعثة نيبور في أغلبه على الجانب الطبيعي للبن بوصفها شجرة وللقهوة بوصفها مشروباً، فهؤلاء لم يكن هدفهم التجارة بالبن مثلما كان الأمر مع لاروك بل مشاهدة طبيعته أينما كان في اليمن. ويذكر أن البعثة حينما وصلت إلى تلال البن استقبلها أهلها بالود والاستغراب - كما يقول هانس - وكان مثار الاستغراب في وصول هؤلاء الأوربيين من بلادهم النائية، مع أنهم ليسوا من تجار البن(٥٩).

منذ دخولها أرض اليمن بدأ يتبين لها أن عصر اللبان والبخور والبلسم قد ولَّى

من ميناء الحديدة الذي رست فيه السفينة التي تقلهم، صعدت البعثة إلى بيت الفقيه قلب تجارة البن في اليمن. وكان وصول البعثة إلى "بيت الفقيه" بمثابة الدخول المباشر إلى عالم تجارة البن في اليمن. ويبدو أن مثل هذا الاستهلاك ترك أثره على البعثة، وجعل اهتمامها منصباً للاهتمام بكل ما له علاقة بالبن والقهوة. ففي خلال تجوال البعثة في اليمن من اللحية وإلى عدن وجهت البعثة عنايتها إلى وصف المقاهي، "المقهاية" كما كان يطلق عليها هناك، فكانت تجد

(٥٩) نفسه، ٢٣٩.

فيها الملجأ للراحة والأكل والشرب. ويقر نيبور بأن رحلته في اليمن، وعلى الرغم من تزامنها مع حلول شهر رمضان، إلا أنه كان يجد ورفقاؤه مبتغاهم من الأكل والشرب حتى في أقاصي مسالكهم في تلك المقاهي مما تسمى الريفية منها بـ "عريشة القهوة" والتي كانت فيما يبدو تتناثر في طريق البعثة أينما حلت(٦٠).

لم يتسن للبعثة على الرغم من جولاتها الواسعة في معظم نواحي اليمن أن تغطي المناطق التي كانت تخطط لرؤيتها، وذلك بسبب مشاكل عدة واجهتها، وعلى رأسها تناقص أفراد البعثة بالموت. وأمام هذه المعوقات لجأ نيبور إلى أسلوب عمل اقتفى الآخرون من رحالة الجزيرة لاحقاً أثره فيه، مثل: بوركهارت، وهو السؤال عن المناطق التي لم يتمكن من زيارتها، أو مقابلة أفراد منها في محل إقامته في اليمن. وبهذا الأسلوب تمكن نيبور من جمع مادة غير مسبوق إليها عن اليمن وجزيرة العرب عموماً، والبن والقهوة على وجه الخصوص.

ولهذا فإن رحلة نيبور تحوي مادة استثنائية وبالغة القيمة عن البن والقهوة في موطنها، وكما شاهدها على طبيعتها أو سمع عنها، سواء في بروز أهمية البن بوصفه سلعة تجارية، أو القهوة في كونها مشروباً يلامس كل شفة.

من المناطق التي زارتها البعثة في اليمن، يستأثر بيت الفقيه بالنصيب الأوفى من الاهتمام؛ بوصفه قلب النشاط التجاري للبن. لوقوعه في وسط المثلث الجبلي الذي ينمو فيه البن، وتنشط فيه تجارته، صنعاء واللحية والمخا.

ويقدم نيبور وصفاً دقيقاً للمدينة وتاريخها بحكم اتخاذ البعثة لها مركزاً لتجوالها في اليمن، فيصف المدينة وأسواق البن فيها، ويحدد انطلاقة البن منها إلى المخا، ميناء تجارة البن في البحر الأحمر سواء

(60) C. Niebouhr, Travels Through Arabia, vol : 1, 303, 307, 315.

عبر جدة وإلى مصر، أو مباشرة مع السفن الأوربية (الهولندية والإنجليزية والفرنسية) الراسية على مينائها. أو عبر القوافل البرية إلى مكة ونجد وعمان، مؤكداً أن النسبة الكبرى من المحصول اليمني من البن يأخذ طريقه إلى المستهلك عبر بيت الفقيه[٦١].

وتحظى المخا بذات القدر من الاهتمام من نيبور، فإذا كانت مدينة بيت الفقيه عصب تجارة البن داخلياً، فإن المخا كانت الشريان الذي يتدفق منه البن إلى جهات العالم. وبسببه يجلب الثراء لليمن؛ وهذا ما يجعلها بلاد العرب السعيدة بحق، والبن على النحو نفسه، بوصفه سلعة محتكرة لليمنيين، وبنمو الطلب العالمي عليه، كان قادراً على جلب المال لليمنيين عموماً ولحكامها خاصة من خلال مردود الجمارك. ولعل المخا كانت من أكثر المدن اليمنية استفادة من طفرة القهوة التي عاشتها اليمن، ونيبور الذي يتابع حديثه عن المخا يربطها بالشاذلي الذي يعزى إليه أول شرب للقهوة، يقول: "إن الفرنسيين والإنجليز كانوا أيام رحلته قد اكتسحوا المدينة طلباً للبن، وإن هذا الاستنزاف الأوربي لمحصول البن، وقلة قدرة اليمن على زيادة المحصول منه بزراعة مزيد من الأشجار سوف لا يكون لصالح اليمن على المدى الطويل، ولا سيما أن الأوروبيين بدؤوا الآن في نقل شجيرات البن إلى بلدانهم، في إشارة لما حصل تحديداً. ولا ينتهي حديث نيبور عن القهوة دون الإشارة إلى أمريكا (الأرض الجديدة) التي كانت قد أخذت في تصدير البن حينذاك[٦٢].

ويستحسن - قبل قلب صفحة حديث نيبور عن القهوة - أن نتوقف قليلاً عند صورة العلاقة الحميمة التي كانت قد نشأت بين العربي والقهوة كما لحظها: "يستيقظ العربي قبل الشروق، قبل أن يغرق النهار في حميم حرارة الشمس؛ ليشعل النار، ويجلس

(61) Niebouhr, vol: I, 293, 395 .

(62) Niebouhr. vol: I , 395, 408, vol: II, 94, 121, 128 .

القرفصاء بجانبها يدخن غليونه، وينتظر أن تفوح قهوته، التي وضعها على النار، وحين تصبح القهوة جاهزة يصبها، ويقدمها إلى الآخرين في أقداح صغيرة لا يسمح كل منها إلا بجرعة واحدة، وتعاد الأقداح بعد الانتهاء من شرب ما فيها؛ لتملأ من جديد، وهكذا مرات عديدة". وفي هذا يتجلى أحد معاني التقاليد العربية في الضيافة، ذلك أن تقديم قدح كبير مفعم قد لا يكون لائقاً، وقد يكون في هذا ما معناه: إليك هذا، أيها الضيف، اشربه وارحل، ويمضي نيبور معلقاً: "الإنسان العربي قنوع بالأشياء الصغيرة، والعرب يعيشون حياتهم كما يشربون القهوة قانعين بمصة منها بين الفينة والأخرى"(٦٣).

ومثلما حملت سفينة قهوة نيبور ورفقائه إلى اليمن، غادر نيبور اليمن وحده على سفينة قهوة أيضاً(٦٤).

قدم نيبور صور القهوة من منظور واقعها في اليمن، وهو أمر رأيناه عند دي. لاروك أيضاً، ولا جدال أن القهوة فقدت بعد هذين الاثنين من يعطيها أولية الاهتمام، فانزوت الاهتمامات بها من بعدهما إلى مصاف الحديث العارض والملحوظة الضمنية مع سياق اهتمامات أخرى كالتجارة والضيافة. وتبدأ هذه المرحلة بالرحالة الأسباني دومينجو باديا أي ليبليش (Demingo Badia y Leblich)، الذي عُرف باسمه العربي علي باي العباسي، وعنونت رحلته بهذا الاسم(٦٥).

(63) Niebouhr, vol: II, 231-232.

(64) Niebouhr, 319.

(65) Travels of Ali Bey in Morocco,Tripoli, Cyprus, Egypt, Arabia,syria and Turkey (London 1813)

- انظر كذلك : عبدالحفيظ حمان، "الحياة العامة في بعض مدن الحجاز في بداية القرن التاسع عشر، من خلال رحلة دومينجو باديا (على باي العباسي)"، الدارة، ع٢، س ٢٨، ١٤٢٣هـ، ٨٥ - ١٣٢. ونشر هذا البحث في مجلة التاريخ العربي العدد ٢٣، صيف ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م، ص ٢٩ - ٦٥.

كان وصول باديا إلى جدة قادماً من مصر في الثاني من ذي القعدة عام ١٢٢١هـ/١٣ يناير ١٨٠٧م. وفي جدة، فضلاً عن مظهر المدينة العام ومبانيها الجميلة وأسواقها العامرة، جذب النشاط التجاري فيها على وجه خاص اهتمام باديا. وعند حديثه عن ميناء جدة وحركة السفن فيه، أدرك باديا بالمشاهدة المكانة التي أحرزتها جدة من الوساطة التجارية في البحر الأحمر. وكان من ضمن مشاهداته القوة التي كانت عليها تجارة البن، التي كانت ما تزال محافظة على حيويتها في مطلع القرن ١٣هـ/١٩م بسبب استمرار التنافس الإنجليزي - الفرنسي، ودخول حاكم مكة المكرمة الشريف غالب بن مساعد في التجارة السائدة ولا سيما تجارة البن(٦٦).

إن ثراء المعلومات المتوافرة عن البن والقهوة في رحلتي دي. لاروك ونيبور يؤدي إلى الظن أن ما هو متوافر عنهما عند باديا قليل، ولا جدال في ذلك، ولعل بالإمكان شرح الأسباب بعرض التفسيرات الآتية؛ كان باديا - في ترتيب الرحالة - أول رحالة يتناول قضايا البن والقهوة من منظوريهما الاستهلاكي والتجاري، وليس من منظوريهما الإنتاجي والتصديري، بمعنى أنه كان ينظر إليهما من زاوية نشاطيهما التجاري في جدة ومكة المكرمة، وليس من منظور وضعيهما اللذين كانا مزدهرين في اليمن مثلما كانت الحال مع لاروك ونيبور، حقاً كانت مكة المكرمة أول وأكبر حاضرة مستهلكة للقهوة، كما أن جدة كانت ما تزال أكبر مركز لتبادل تجارة البن في البحر الأحمر في زمن رحلة باديا إلى المدينتين، بيد أنه لا معدل الاستهلاك في مكة المكرمة، ولا نشاط تجارة البن في جدة كانا كافيين أن يمدا حديثي البن والقهوة بمثل ما كان يمده به موطنهما الأم في اليمن.

ويمكن أن نضيف أن القهوة منذ مطلع القرن ١٣هـ/١٩م، زمن رحلة باديا، كان قد أصبح أمرها مألوفاً، وبالتالي فتّر ذلك من حماسة

(66) Travels of Ali Bey, vol: II, 40-43, 107 .

الحديث عنها. وأما عن تجارة البن في عمومه، فإن تجارة البن اليمني كانت أيضاً قد تجاوزت عصورها الذهبية السابقة، وذلك بسبب منافسة البن العالمي لها. وعلى الرغم من تأكيد باديا على نشاط جدة في تجارة البن واستمرار حيويتها، إلا أنه كان يتحدث عن هذه التجارة في أواخر فصولها، ليس مثل دي. لاروك ونيبور اللذين كانا قد لحقا أيام عزها في اليمن والبحر الأحمر.

التفسيران الآنفان يوضحان عمومية أحوال تجارة البن، وأوضاع القهوة خلال رحلة باديا في جزيرة العرب والبحر الأحمر، بيد أن الرحلة تحوي أيضاً أسباباً خاصة لضمور حديث البن والقهوة فيها، تنطبق عليها كما هي قابلة للتطبيق على رحلات تالية أخرى؛ منها أن ذكر البن والقهوة في العادة يفرض نفسه على أوصاف الرحالة في حالة عندما يكونا في موقع القوة، كما رأينا مثالهما لدى دي. لاروك ونيبور، بيد أنه عندما يغدو أمرهما واهناً ومألوفاً، مثلما كان حالهما أيام باديا، فإن ذكرهما يفقد القدرة على احتلال حيز لهما في أسطر الرحلة إلا عندما يجد الرحالة فسحة الوقت وراحة البال وما يجذب الانتباه، وإلا فهما معرضان لأخذ دورهما ضمن سياق أولويات أهم. ويتصدر سلم الأولويات هنا المكانة الدينية للجهة التي يقصدها الرحالة. وكان هذا حال باديا وغيره تماماً، فهو عندما حل بمكة المكرمة والمدينة المنورة فرضت عليه أولوياته أن يهتم بوصف الحرمين الشريفين والمشاعر والحج، وفي غلبة هذه الأولويات كان الالتفات إلى البن والقهوة عرضا.

إن رحلة باديا، على أية حال، تحوي - على الرغم من الأمور المشار إليها - ما يمكن عدّه ذا أهمية خاصة فيما يتعلق بحديث البن والقهوة، وذلك لاحتوائها على معلومات غاية من الأهمية تنفرد بإيرادها متزامنة مع يوميات الرحلة نفسها وفي زمن حدوثها تحديداً. إذ كان باديا شاهد عيان على دخول القوات السعودية إلى

مكة المكرمة في حج عام رحلته، وكان في صفوف النظارة للحدث؛ ومن موقعه كتب واصفاً: "إن البئر تطلب صدقات، وبيت الله الأضاحي، والأدلاء أجورهم، ولكن معظم الوهابيين لم يكونوا يحملون مالاً؛ فوفوا ما عليهم بإعطاء عشرين أو ثلاثين حبة كبيرة من البارود، وقطع صغيرة من الرصاص أو بعض من حبوب البن"(٦٧). وفي هذا النص يعرض باديا دليلاً ثابتاً بأن السلفيين لم يحرموا القهوة مثلما هو شائع عند الذين لم يجهدوا أنفسهم بمعرفة الحقائق عنها.

يعرض باديا دليلاً ثابتاً بأن السلفيين لم يحرموا القهوة مثلما هو شائع

ولعل هذه المسألة تحديداً تتوافق لأن تكون مدخلاً للانتقال إلى عالم الرحالة السويسري يوهان لودفيج بوركهارت (Johann Lodvig Bukhardt)، الذي عقب باديا إلى الجزيرة العربية بسبعة أعوام. ففي ملحق رحلته ألحق بوركهارت ملحقاً عن الوهابيين أشار فيه تحديداً إلى مزاعم تحريم الوهابيين للقهوة قائلاً: "ويقال أيضاً إلى جانب تحريمهم الدخان: إنهم حرموا شرب القهوة، ولكن ذلك غير صحيح؛ فهم يشربونها دوماً وبقدر كبير"(٦٨).

وصل بوركهارت جدة في صباح اليوم الخامس عشر من يوليو سنة ١٨١٤م/١٢٣٠هـ. وحال استقراره فيها كتب عنها: "وجدة لا تستمد ثراءها من كونها ميناء مكة فحسب، بل يمكن هي أيضاً ميناءً لمصر والهند والجزيرة العربية، فكل صادرات هذه البلدان إلى مصر تمر أولاً على أيدي تجار جدة، ولهذا السبب ربما تكون أغنى من أي مدينة في حجمها في بلدان الخلافة العثمانية، واسمها العربي بمعنى غنية، ينطبق عليها تماماً"(٦٩).

---

(67) Travels of Ali Bey, vol II, 62 .

- جاكلين بيرين، اكتشاف جزيرة العرب، ٢٠١.

(٦٨) جوهان لـ. بوركهارت، مواد لتاريخ الوهابيين، ترجمة: عبدالله الصالح العثيمين، (الرياض: شركة العبيكان للطباعة والنشر ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م)، ٢٥.

(٦٩) ج. لـ. بوركهارت، رحلات في شبه جزيرة العرب، ترجمة: عبدالعزيز بن صالح الهلابي، وعبدالرحمن عبدالله الشيخ، (بيروت: مؤسسة الرسالة ١٤١٣هـ/١٩٩٢م)، ٢٢٧. انظر كذلك: ٢٧ - ٢٩، ٣١ - ٣٢.

إن جدة التي وصفها بوركهارت على هذا النحو كانت وما تزال مركزاً للتبادل التجاري لمنتجات الشرق (الهند والصين) فضلاً عن مصر، بيد أن إشارات بوركهارت المتكررة إلى تجارة البن وكمياتها المتداولة وكذلك أسعارها ومردود جماركها تتجاوز نطاق محيط تجار جدة إلى حاكم مصر وشريف مكة المكرمة أمثال: الشريف غالب بن مساعد في الحجاز، ومحمد علي في مصر. ويقترح بوركهات في هذا الصدد بأن من أحد أسباب حملة محمد علي على الجزيرة العربية "كان بسبب تطلعه منذ مدة طويلة إلى أن ينعم بثروة اليمن المشهورة جداً"، ويزيد الرحالة مضيفاً، ولعله (محمد علي) رغب أيضاً في أن يهيمن على المبالغ الكبيرة من الدولارات التي كانت ترسل سنوياً من القاهرة لشراء القهوة"(٧٠)؛ وتدعم إشارة بوركهارت القول: إن تجارة البن كانت وما تزال سيدة الموقف حينذاك، كما أنها مصدر الثراء لحكام المنطقة، فضلاً عن القائمين على تجارته، بحارة وتجاراً.

معلوم أن بوركهارت، مثل: باديا، هو من رحالة المدينتين المقدستين، ومثلما أعطى باديا أولوية الوصف للحرمين الشريفين ووصف المشاعر والحج في رحلته، فإن بوركهارت أيضاً أفرغ الحيز الأوسع من رحلته لمثل تلك الاهتمامات، بيد أن الوقت الأطول الذي امتلكه للبقاء في مكة المكرمة والمدينة المنورة (ستة أشهر في مكة المكرمة وثلاثة في المدينة المنورة)، فضلاً عن زيارته الخاطفة للطائف، أعطت له فسحة التوسع في أوصافه لتشمل قضايا اجتماعية(٧١)، ومنها

(٧٠) بوركهارت، مواد لتاريخ الوهابيين، ١٨١ - ١٨٢.

(٧١) إن فسحة الوقت التي توافرت لبوركهارت مكنته ليس من إعطاء أوصاف لحواضر الحجاز وعاداتها الاجتماعية فحسب، بل إلى جمع معلومات غنية غير مسبوق إليها عن مناطق أخرى من جزيرة العرب لم يتمكن من زيارتها، مثل: نجد واليمن وشمال الجزيرة. وقد دون معلوماته في جزأين ملحقين لكتابه باسم: Notes on the Bedouins and Wahabys، وقد ترجم عبدالله العثيمين ما يتعلق بالسعوديين: "مواد لتاريخ الوهابيين". (الرياض: ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م). إن الدراسة هنا تستعمل عبارة "السلفيين" فيما عدا النصوص المنقولة فإنها تبقى على كلمة (الوهابيين) كما استعملها أصحابها.

القهوة والمقاهي، ليس في تلك المدن فحسب بل فيما بين مسالكها أيضاً.

مثلما هو متفق عليه أن اليمن هو الوطن الأم للقهوة بوصفها مشروباً، هناك اتفاق على أن الموطن الأم للمقاهي هي مكة المكرمة. ومثلما انتشرت القهوة من اليمن، انتشرت فكرة المقاهي أولاً - فيما يبدو- في حواضر الحجاز، ثم تتابعت إلى الحواضر العربية، ومنها إلى حواضر الدولة العثمانية. ومع انتشار القهوة عالمياً انتشرت المقاهي على هذا المنوال نفسه.

ليس من السهل تعيين تاريخ محدد لظهور فكرة المقاهي، كما أنه من الصعب الجزم أين كانت البداية. والراجح أنها عقبت الاهتداء إلى القهوة بزمن يسير، فالمعروف أن القهوة شُربت في أوساط المتصوفين الشاذلية في اليمن أولاً، ومع انتشارها كان على الذين شغفوا بها أن يوجدوا أماكن لشربها، ونظراً لأن البيوت لم تبدأ مكاناً لإعدادها، ولا أنها أيضاً قامت على فكرة الشرب الجماعي لها، فإن الحاجة فيما يبدو دعت إلى إقامة أماكن عامة لشربها. ولعل إعطاء اسمها للمكان "مقهى" يبين مدى التلازم بين اختيار المكان وهدف الشرب.

وفي إطار ما دُوّن من الإشارات إلى المقاهي في كتب الرحالة، فقد ألمح باديا إلى وجودها. وللقرب الزمني بين تلك الرحلة ورحلة نيبور، فإن ما سجله نيبور عن مقاهي مكة المكرمة وجدة ووصفه لها بدقة من خارجها وداخلها، مشفوع بملحوظات اجتماعية عن مرتاديها، قد يحكي عن واقع حالها حينذاك في حواضر الحجاز على أقل تقدير، ومما يقوله بهذا الصدد: "يوجد في الشارع الرئيسي في جدة سبعة وعشرون مقهى"، ويمضي معلقاً: "إن أهل الحجاز يفرطون في شرب القهوة، وأفقر العمال لا يشرب أقل من ثلاثة أو أربعة فناجين يومياً. وفي قليل من المقاهي تقدم "القشر"، وهي معمولة من قشور حبوب

البن، وهي أردأ مذاقاً من القهوة المصنوعة من الحبوب نفسها. وتزدحم المقاهي بالرواد طيلة اليوم. وغرف المقاهي وكراسيها منها نوعية عالية. ولا يمكن رؤية رجال الأعمال المحترمين في هذه المقاهي لقذارتها، لكن التجار والبحارة يتخذونها محل إقامتهم الدائم. والعربي الذي ليس بمقدوره دعوة صديقه لتناول الغداء، يدعوه عندما يراه ماراً من عند المقهى للدخول، وتناول فنجان من القهوة، فإذا رفض المدعو فيكون رفضه بمثابة إهانة للداعي". ومع حديث واسع عن انتشار التدخين والشيشة ولعب المنقل في هذه المقاهي، يختم بوركهارت ملحوظاته بقوله: "بأنه لم يشاهد في مقاهي الحجاز أي واحد من القصاصين الشعبيين (الحكواتية)، على نحو ما هو شائع في مصر والشام. والقهوة ولا سيما المنزلية منها يضاف إليها حب الهال أو حب القرنفل. وهناك عادة، أكثر شيوعاً في البادية وهي تناول فنجان من السمن (الزبد) وبعده فنجان قهوة اعتقاداً بأن ذلك يقويهم"(٧٢).

وعند مغادرة بوركهارت جدة في طريقه إلى الطائف، بدت المقاهي وكأنها أكثر نقاط وقوف الرحلة اجتذاباً له. فالقهاوي كما يصنف واصفاً تقام عادة بالقرب من مناطق الآبار. ويشيرإلى أنه كان في السابق في الطريق بين جدة ومكة المكرمة اثنتا عشرة مقهى تقدم القهوة والوجبات الخفيفة المتنوعة للمسافرين، ولكن وبما أن السفر الآن (أيام رحلته) غالباً ما يكون خلال الليل، ولأن الجنود الأتراك لا يدفعون قيمة أية طلبات يأخذونها ما لم يجبروا على ذلك، فقد

(٧٢) بوركهارت، رحلات في شبه جزيرة العرب، ٣٤ - ٣٦، ٤٣. أما بخصوص وجود القصاصين في المقاهي، يبدو أن الوضع كان قد تغير في أيام رحلة ك. سنوك هورخرونيه (رحلته ١٣٠٢هـ/١٨٨٤م)، فهو يشير إلى وجود الحكواتية في مقاهي مكة المكرمة، يحكون قصص عنترة وألف ليلة وليلة، صفحات من تاريخ مكة المكرمة، ترجمة: علي عودة الشيوخ، جـ٢، (الرياض : الدارة ١٤١٩هـ/١٩٩٩م)، ٤٢٦. وأشار العياشي - كما مرّ بنا - إلى وجود الحكواتية في بعض مقاهي مكة المكرمة.

عطلت معظم هذه المقاهي. وكان بوركهارت قد تعرض بنفسه إلى فوضى الجند الأتراك في مقهى في حدة. أما المقاهي الباقية في الطريق (بحرة وشداد ووادي النعمان، كان يمتلكها أفراد من قبيلة لحيان: هذيل والمطارفة). ويذكر بوركهارت أن بحرة كان فيها صف من الدكاكين، تباع فيها القهوة بنسبة تزيد على (٣٠٪) عن سعر سوق جدة، إلى جانب الأرز والبصل والسمن(٧٣).

وفي الطائف، التي وصل إليها بوركهارت عن طريق جبال الكر (طريق مكةالمكرمة - الطائف الجبلي) مروراً بعدد من المقاهي في الطريق، والتي يبدو من تحديد مواقعها أنها ما زالت قائمة إلى وقتنا الحاضر في المواقع نفسها تقريباً، وجد بوركهارت وقتاً ليلحظ أنها كانت مركزاً لتوزيع البن الآتي إليها براً من اليمن وعبر السراة عن طريق القوافل، والبن المجلوب من هذا الطريق كان يتملص من الضرائب الباهظة التي تُجْبى عادة في السواحل؛ مع أن الكمية المجلوبة فيما يبدو لم تكن لاستهلاك الطائف فحسب، بل للمتاجرة بها في مكة المكرمة ونجد، ومما يبدو أيضاً أن نجد لم تكن معتمدة في حاجاتها للبن على ما يردها من الطائف، فبوركهارت، في موضع آخر من رحلته، يشير إلى أن البن الذي يستهلك منه سكان الصحراء كميات كبيرة، يستورده أهل نجد بأنفسهم إذ يرسلون قوافلهم إلى مناطق إنتاجه في اليمن لجلبه(٧٤). وفي كلتا الحالتين، من الواضح أن البن بعد نمو الطلب عليه في جزيرة العرب وجد في قنوات الاتصال المعروفة عبر طرق القوافل القديمة شرياناً متجدداً للانتشار وإرضاء الطلب.

(٧٣) بوركهارت، ٦٠ - ٨٥.

(٧٤) نفسه، ١٧٦. ويضيف الرحالة بأن مثل تلك الأنشطة التجارية تكون مرهونة بزمن السلم. ويقدم بوركهارت معلومات قيمة عن طرق القوافل بين اليمن والحجاز ونجد (طرق القهوة)، وكذلك من نجد إلى شمال الجزيرة، انظر: ٤٠٧ - ٤٣٠.

في رحلة عودته من الطائف، متوجهاً إلى مكة المكرمة، توقف بوركهارت مرة أخرى في مقهى شداد. وهنا قدم لنا وصفاً هادئاً بأنه: "لا يوجد في المقاهي بالطريق غير القهوة والماء، ولا تقدم القهوة في فنجان لكل زبون، كما هي عادة التقديم في معظم نواحي الشرق، ولكن من يطلب قهوة يوضع أمامه إبريق خزفي من القهوة الساخنة يحتوي من عشرة إلى خمسة عشر فنجاناً، ويشرب المسافر عادة مثل هذا القدر ثلاث أو أربع مرات في اليوم. وتسمى هذه الأباريق مشربة. وتوضع حزمة من العشب في فم الإبريق أو المشربة وتسكب من خلالها القهوة". ويضيف: "وقد ذكرت قبل ذلك عن الإفراط في شرب القهوة في هذا الجزء من الجزيرة العربية".

ويعدد بوركهارت فيما يأتي مقاهي مكة المكرمة المتوزعة على أحيائها، وما يضيفه هنا له أهميته، فهو يقسم المقاهي على حسب التمايز الاجتماعي والاقتصادي، فحي الشبيكة، وهو من أرقى أحياء مكة المكرمة، تصطف المقاهي في شارعه الرئيس، وينزل في هذه المقاهي سماسرة القوافل، وعن طريق هؤلاء يتم تأجير جمال البدو؛ للقيام برحلات إلى جدة والمدينة المنورة. وفي المقابل يرتاد مقاهي المسفلة الأعراب والتجار البدو الذين يسافرون زمن السلم إلى اليمن عامة، وإلى المخواة خاصة، ومن هناك يستوردون الحبوب والبن والزبيب. وفي المسعى أيضاً تمتد المقاهي التي تزدحم من الثالثة صباحاً حتى الساعة الحادية عشرة مساء، وتكون أكثر ازدحامًا ليالي رمضان والحج والمولد. وتتواصل الإشارة إلى مقاهي القشاشية وهي - كما يحدد بوركهارت - خاصة بعلية القوم، وعلى النقيض منها مقاهي المعلاة، فهي للطبقات العامة. ويختم بوركهارت تفصيلاته عن مقاهي مكة المكرمة ذاكراً بأنه جلس فيها لغرض الجلوس مع البدو، ولقاء دفع قيمة القهوة كان بإمكانه الحصول على معلومات عن مناطقهم[٧٥].

(٧٥) بوركهارت، ١٠٦، ١٠٩، ١١٣، ١١٦ - ١١٧، ١١٩.

ولا جدال أنه جنى من ذلك فوائد رأينا ثمارها فيما ذكر عن البدو في ملحق رحلته. ويشير بوركهارت خاتماً إلى انتشار المقاهي في منى وعرفات، ولعلها كانت موسمية(٧٦).

زار بوركهارت المدينة المنورة بعد مكة المكرمة، وعلى الرغم من أنه أقام فيها ثلاثة أشهر، إلا أنه لم يتوسع في الحديث عن القهوة والمقاهي سواء فيها أو في الطريق إليها، فإشاراته هنا عابرة لا تتعدى ذكر وجود مقاهي في سوق المناخة وأمام الباب المصري، وهما سوقان للقوافل الواردة للمدينة. وقد يعزى ذلك إلى أن المقاهي ربما لم تكن منتشرة في المدينة مثل انتشارها في جدة ومكة المكرمة، أو قد يكون الأمر عائداً إلى مرض الحمى الذي أصيب به بوركهارت معظم أيام إقامته في المدينة المنورة؛ مما ألزمه منزله، وفاته بسببه ملاحظة مظاهر الحياة فيها مثلما فعل في مكة المكرمة(٧٧).

كما يبدو أن بوركهارت أيضاً لم يتعرض إلى تجارب شرب القهوة في منازل مكة المكرمة والمدينة المنورة، فهو على الرغم من إشاراته العابرة إلى أن دلة القهوة لا تكاد ترفع من فوق النار في منازل مكة المكرمة، وأن القهوة في المدينة المنورة أكثر انتشارا في البيوت منها في المقاهي(٧٨). إلا أنه لا يرسم الصور الانطباعية التي عادة ما يرسمها عن المقاهي وما كان يدور فيها، فما يقوله عن القهوة في منازل المدينتين يكاد يتشابه مع عموميات الملاحظات التي دونها عن الوهابيين والبدو وعادات مناطق الجزيرة العربية التي لم تتح الفرصة زيارتها، واكتفى بجمع المعلومات عنها بالسماع، مثل قوله: "إن قبيلة عنزة لا تعد القهوة الجديدة إلا للضيف ذي الشأن العالي". أو قوله:

(٧٦) نفسه، ٢٤٢، ويذكر بوركهارت أنه شاهد امرأة سافرة الوجه تبيع القهوة في عرفات.

(٧٧) نفسه، ١٨٣، ٣٠١.

(٧٨) نفسه، ٣٥٤.

"إن بعض القبائل تنحر الخراف لضيوفها الأغراب بينما تقدم القهوة لجميع الضيوف المحليين، أو أن البدوي عموماً يشعر بالحزن إذا لم يتمكن من إكرام ضيفه بفنجان قهوة بسبب الفقر، في مجتمع فيه الكرم الفضيلة الأولى". أو قوله وهذه كانت بالمشاهدة "بأن النساء البدويات في مناطق حوران يشاركن الرجال شرب القهوة"، وهو أمر يعلق عليه بوركهارت بأنه غير مسموع عنه في كل جزيرة العرب، إلا في بعض مناطق اليمن(٧٩). ويختم بوركهارت حديث القهوة في المناطق التي زارها بأن شغف الناس بالشاي في إنجلترا وهولندا ليس مساوياً لولع سكان الجزيرة العربية بالقهوة(٨٠).

برحيل بوركهارت من جزيرة العرب انقضى عهد الرحالة الكبار. والمكانة التي نحفظها لهؤلاء ليس مردها أنهم كانوا أوفى من غيرهم في الخوض في عالم البن والقهوة وشؤونهما، وهم حقاً كانوا كذلك بالمقارنة مع من جاء بعدهم، بل لأن هؤلاء وبمتابعتهم الدقيقة للبن والقهوة في محيطهما البيئي والاجتماعي والاقتصادي على خلفية الظروف المختلفة التي كانت السائدة في موطنهما الأصلي، قاموا برسم الخطوط الأولية لتاريخ البدايات، ثم لاحقاً الانتشار، وأخيراً الترسخ للبن والقهوة، فقد رأيناهم يتعاملون مع البن والقهوة لا لكونهما أمرين طارئين يعترضان طرق رحلاتهم، بل جعلوا منهما هدفاً مقصوداً أدركوا أن عليهم التعامل معهما على النحو الذي ينبغي عليهم التعامل مع أمر مهم.

إنه لمن المؤكد أن القهوة – على ما يقرب من النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري/ ١٩م – قد غدت مشروباً معروفاً في البلدان التي قدم رحالتها منها إلى الجزيرة العربية، وكان من الممكن أن يعني ذلك أن إدراج الحديث عنها قد لا يكون موحياً للرحالة بأنه

(79) Notes on the Bedouins and Wahabys, vol: I, 62, 72, 248, 338, 439.

(٨٠) بوركهارت، ٣٥٤.

ينقل للآخرين أوصافاً غريبة عليهم، وهو هدف يحرص عليه المترحل مهما اتسم بالعفوية طلباً للتشويق والإثارة. بيد أن هذا لم يعنِ إطلاقاً أن اهتمام الرحالة بالقهوة قد خف. فهي من منظور ساكنَ الجزيرة العربية كانت وما تزال قادرة على بث الشجون، فضلاً عن جذب الانتباه.

ويمثل الرحالة الفرنسي موريس تاميزييه (M.Tamzir) الذي وصل جدة عام ١٢٤٩هـ/١٨٣٤م في مهمة عسكرية بوصفه أحد مرافقي الحملات المصرية على عسير بداية هذه المرحلة[٨١]. وبالنظر إلى الهدف المعلن للرحلة، فإن المتوقع أن شأن القهوة سوف يخلو من مدوناته، وذلك لأن حديث القهوة - أمام هدف أكبر - يأخذ في العادة مكاناً هامشياً، فقد رأينا ذلك عند الرحالة الذين يقصدون مكة المكرمة والمدينة المنورة، فقد كانوا يعطون أولوية الاهتمام لوصف المدينتين المقدستين والمشاعر والحج، كما كانت مثل تلك الأولويات تصرفهم عن الاهتمام بالمسائل الجانبية. والحديث عن الحملة والتنظيمات العسكرية المرافقة لها، ودوي المدافع سوف لن يمنح بالتالي فسحة الاهتمام للالتفات إلى مشروب غدا شأنه مألوفاً. وهذا ما لحظ تماماً على أوصاف تاميزييه لوقائع رحلته، فهو عندما امتلك برحة الوقت في حواضر الحجاز، وهذا غطى الجزء الأول من الرحلة، تسللت القهوة عرضاً إلى أسطر الرحلة، وحينما بدأت الحملة على عسير، وهو ما يغطي الجزء الثاني من الرحلة، اختفى الحديث عن القهوة إلا من إشارات عابرة.

يستهل تاميزييه حديث القهوة في رحلته من ملاحظة رمزية لفتت نظره في السفينة التي أبحرت به من السويس إلى جدة، فعلى ظهر السفينة استرعى نظر تاميزييه أن البحارة العرب كانوا يمضون الليل

(٨١) موريس تاميزييه، رحلة في بلاد العرب - الحجاز، ترجمة: محمد بن عبدالله آل زلفة، (الرياض : دار العرب للنشر والتوزيع ١٤١٤هـ/١٩٩٣م). المقدمة، ٧.

بالترفيه عن أنفسهم بتدخين الغليون وشرب القهوة، بينما حافظ الإنجليز الذين كانوا معه على تدخين السيجار وشرب الشاي. وبينهم الأتراك الذين كانوا يسترخون في تدخين النارجيلة واستنشاق قهوة البن. وعند النزول في بر ينبع انتشر الجميع في المقاهي هناك(٨٢).

صادف وصول تاميزييه جدة أول أيام رمضان (١٢٤٩هـ/ ١٨٣٣م)، وهذا يعني مشاهدته لمقاهيها في أوج نشاطها، فقد مرّ بمقاهي وسط البلد وعلى امتداد البازار الذي تنتشر فيه الكثير من المقاهي المزدحمة بالناس سواء من المواطنين أو الأجانب، وهي مشيدة، كما يصفها تاميزييه على شكل عشة تصف فيها سرر القهوة (المركاز) التي كانت تستعمل للنوم والجلوس، وتعلق على سقوفها زينة متدلية على شكل قوارب صغيرة(٨٣).

وعلى النقيض من بوركهارت الذي فيما يبدو بقيت الحياة الخاصة لأهل المدن التي زارها في الحجاز مغلقة أمامه تمكن تاميزييه - ربما بسبب مكانته الرسمية - من فتح قنوات اتصال مع الفئات المختلفة في المجتمع، وعقد صداقات مع بعضهم، ويقول عن نفسه: إنه كان عُرف في مكة المكرمة وجدة بصفة (شيخ أفرنجي). وقد لحظ من خلال اتصالاته أن أدوات القهوة كانت متوافرة في كل منزل، فقيراً كان أو ثرياً، كما أن القهوة متوافرة للنساء دوماً في المنازل. وعلى المستوى الرسمي لحظ تاميزييه أن أحمد باشا بن إبراهيم باشا كان يستقبل زواره في مجلسه بالقهوة، وكان حراسه يحملون نارجيلته وعلبة كبيرة تحوي كل الأواني الضرورية أو اللازمة لإعداد القهوة. وهو ما لحظه أيضًا عن البدوي الذي يذكر تاميزييه أن من ضمن تجهيزات رحلته الطويلة دوماً كيسًا صغيرًا مملوءًا بالبن(٨٤).

(٨٢) نفسه، ج١، ٥٤ - ٥٧، ٨٧ - ٨٩، ١١٢.
(٨٣) نفسه، ج ١، ٨٦، ٨٨.
(٨٤) نفسه، ج١، ٧١، ١١٣، ١١٥، ١٥٥.

ويبدو أن تاميزييه نفسه أصبح خلال إقامته في الحجاز من رواد المقاهي، فهو يشير إلى اهتدائه إلى مقهى جديدة وهادئة وقليلة الزبائن في وسط الجبال بين بحرة وجدة، وفي خليص لحظ أن نساء البدو كن يعددن القهوة التي تقدم في المقاهي، وفي حدة لحظ أن (القهوجية) يقومون باستعمال المياه المالحة لصنع القهوة وتقديمها للأجانب القادمين إلى منطقتهم وإلى قليلي الحظ والفقراء[٨٥]. وقد قابل تاميزييه في هذه المقاهي عدداً من العلماء فضلاً عن نفر من النساك.

على طريق الطائف تجنب تاميزييه الحديث عن المقاهي التي مرَّ عليها، متذرعاً بأن قراءه يعرفون ذلك، لعله كان يفكر فيما سبقه إليه بوركهارت في وصف هذه الأماكن، لكنه عاد إلى حديث القهوة في الطائف، ومما لحظه هناك أن كؤوس القهوة والشاي تدور دوماً في جلسات الأغنياء المصيفين. وبينما هو في الطائف أورد تاميزييه ملحوظة غريبة بقوله: إن أفراداً من قبيلة ثقيف الذين والوا السلفيين، أو الذين أتيحت له مشاهداتهم قد امتنعوا عن التدخين أو شرب القهوة، كما لحظ أنهم كانوا يشيحون بوجوههم بعيداً عندما تقدم لهم فناجين القهوة أو الغليون وذلك بمحض إرادتهم[٨٦].

ومع بدء الحملة إلى عسير من الطائف، ومع أخبار سير الحملة يختفي ذكر القهوة تماماً، إلا من إشارة بأن الجيش كان يؤمر بالتوقف؛ ليتمكن الرؤساء من شرب القهوة، ولكن لا شيء عن المقاهي إطلاقاً على الرغم مما قيل عن وجودها في وادي أراخ بين العقيق والطائف[٨٧].

(٨٥) نفسه، ج١، ١٦٧، ٢٣٢.

(٨٦) نفسه، ج١، ٢٣٠، ٢٨١.

(٨٧) نفسه، ج٢، ٢٢٨. والإشارة إلى وجود المقاهي في وادي أراخ استقاها المترجم من حمد الجاسر (في سراة غامد وزهران، ص ٧٤) (الهامش) وقد يكون ظهور تلك المقاهي لاحقاً. ج٢، ٩٢.

في الوقت الذي كان الرحالة الذين وقفنا على رحلاتهم آنفاً يستهلون رحلاتهم من جدة قادمين من السويس، زار الجزيرة العربية جورج أغست والن (عبدالولي) (George August Wallin) في رحلتين، بدأت الأولى من السويس إلى معان والجوف وحائل في ١٢٦١هـ/١٨٤٥م؛ والثانية عام ١٢٦٤هـ/١٨٤٧م، وهو أول رحالة غربي (فنلندي من رعايا قيصر روسيا) زار شمال الجزيرة العربية.

يشار إلى أن والن بأنه كان أعرف الرحالة الغربيين بتاريخ الإسلام عموماً وتاريخ شبه الجزيرة العربية بوجه خاص، فضلاً عن أنه كان من أكثرهم حباً وفهماً للبدو، ويظهر هذا بوضوح في أسطر رحلته[٨٨]. ارتحل والن مع البدو في صحاري الشمال، شاركهم قهوتهم، وأبدى من الملحوظات ما يعد الوقوف عندها تكراراً، بيد أنه من خلال ما ذكر، أشار إلى ما يمكن عدّه جديداً؛ ومن أهم ذلك إشارته إلى "القهوة"، وبالقهوة لا يعني المشروب، ولكن الاسم هنا لمكان. والمكان إما حجرة في كل منزل، مخصصة لاستقبال الضيوف وتقديم القهوة، أما مكان بالاسم نفسه في وسط ساحة المدينة، مثلما رأى والن في وسط الجوف. ومثل هذه الغرف كانت منتشرة في جميع مناطق نجد وشمال الجزيرة، وهي بديل للمقاهي التي رأينا انتشارها في الحجاز وحواضر سواحل الخليج. فمن بعد الحجاز شرقاً وشمالاً لا نقرأ عن وجود المقاهي، بل يتحول شرب القهوة جماعة إلى تلك (القهوة).

ولحظ والن وجود الهاونات الحجرية الكبيرة المستخدمة في طحن القهوة في كل مكان في نجد. وأشار إلى أن حاجة القبائل الشمالية من القهوة كانت تجلب من مكة المكرمة عن طريق جبل شمر[٨٩]؛

(88) George August Wallin,Travels in Arabia (1845 and1848), (England, The Oleander Press 1979).

(٨٩) عوض البادي، الرحالة الأوربيون في شمال الجزيرة العربية، منطقة الجوف ووادي السرحان ١٨٤٥-١٩٢٢م، (الرياض: دار بلاد العرب للنشر د. ت)، ٢٣ - ٣٨.

وقدم ملحوظات شخصية عن أثر القهوة في بناء العلاقات الشخصية في الصحراء: "إن على الغريب في الصحراء أن يجود بشيئين اثنين، البن والتبغ ليكتسب لقبًا كريمًا، وهو أسمى ثناء يمكن أن يوجه إلى إنسان في الصحراء،.. وإذا أفرغت بنّك في المحمصة طوال النهار، وفتحت كيس تبغك لكل مدخن؛ تستطيع عندئذ أن تسافر في الصحراء آمنا محبوباً مكرماً من الجميع". ويبدو أن والن تعلم إجادة صنع القهوة، فهو يقول متفاخراً بأنه نال استحسان ضيوفه عندما أعدها وقدمها لهم(٩٠).

إن الملحوظات التي أبداها والن عن القهوة وتعلمه إجادة إعدادها تتكرر تالياً مع رحالة آخرين. وعرض مثل هذه الملحوظات والتجارب الشخصية لهؤلاء الرحالة يقتضي في الواقع التخلي عن التسلسل الزمني الذي قُدم به الرحالة إلى حينه. وذلك لأن مثل هذه الملحوظات لا ترتبط بسياق تاريخي يبنى على بعضه مثلما كان الأمر مع الرحالة الأوائل الذين كنا نستمد هذا الجانب من أوصافهم فيما له علاقة بالقهوة ومسارها التاريخي في الجزيرة العربية، بل لا تتعدى ملحوظات وتجارب خاصة تعكس واقعاً فردياً ولا ترتبط برابط تاريخي، وإن كانت مثل هذه الملحوظات عادة لا تخلو من سياق تأكيدي على مدى ترسخ القهوة مشروباً اجتماعياً يستحيل تخيل أو اقتراح بديل له في الحواضر والبوادي في الجزيرة العربية.

وهناك عامل آخر - إلى جانب التخلي عن التسلسل الزمني - يوجب التخلي عن التوقف عند كل رحالة، وتفنيد ما قاله عن القهوة مثلما كان التعامل مع الرحالة الأوائل؛ وذلك لأن الوقوف على ما أورده الرحالة التالون لا يخرج عن كونه تكراراً لشواهد سبق لنا إثبات أمثالها من أوصاف الرحالة السابقين. فرحالة مثل ريتشارد بيرتون (Richard Burton) (الحاج عبدالواحد، وكانت

(٩٠) جاكلين بيرين، اكتشاف جزيرة العرب، ٢٧٥ - ٢٧٧.

رحلته عام ١٢٧٠هـ/ ١٨٥٣م) مثلاً تمتلئ أسطر أوصاف رحلته الطويلة بإشارات كثيرة للقهوة، بيد أن الوقوف عند هذه الإشارات لا يسجل جديداً، فهناك مثلاً إشارات إلى وجود المقاهي في الوجه وينبع، وكذلك عن انتشارها في المدينة المنورة وجدة وفي الطريق فيما بينهما، وكذلك في مكة المكرمة، وقد سبق لبوركهارت التعريف بها. كما أن أوصاف بيرتون للمقاهي من القاهرة وإلى عدن تتشابه في أشكالها ووظائفها[٩١]. وإذا كان هناك ما ينفرد به هو تحديده لسعر القهوة في هذه المقاهي بأنه كان في حدود القرش والقرش والنصف، وأن المسافر مضطر إلى شرب فنجان على الأقل كل ساعتين أثناء الراحة من السفر. وكذلك الإشارة إلى أن الحجاج الأتراك لا يشربون القهوة العربية بل يصنعون قهوتهم التركية المحلاة بالسكر، التي يصفها بيرتون بأنها "طين مخا"، ويذكر بشأنها وصفاً للقهوة تداوله الأوربيون بأن القهوة التركية "مرة مثل الموت، وسوداء مثل الشيطان، وحارة مثل جهنم". وختاماً يمتدح بيرتون القهوة التي كانت تعد في بيوت مكة المكرمة والمدينة المنورة دون إعطاء وصف عن كيفية إعدادها، وأن قهوة القشر تشرب في مكة المكرمة إلى جانب القهوة العربية، ويبدو أن بيرتون، مثل والن، تعلم هو الآخر صنع القهوة العربية، فهو كما يقول كان يعدها لنفسه ولضيوفه، وأنه كان يحمل مؤونته من البن معه دوماً في ترحاله[٩٢].

الحالة الأخرى في الرحالة الذين كرروا معلومات عن المقاهي وقد سبقهم إليها الآخرون يتمثل في الرحالة الفرنسي شارل ديدييه (Charles Didier) (تاريخ رحلته عام ١٢٧١هـ/١٨٥٤م)، بدأ

(91) Richard F. Burton, Personal Narrative of A Pilgrimage To Al - Madinah and Meccah,
voL : I, (London: G. gell and Sons 1913), 215, 217, 291, vol: II, 261.

(92) R. burton, vol: I. 290-291, vol: II. 383.

عُربت الرحلة مؤخراً: رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز، (٣ أجزاء)، عبدالرحمن عبدالله الشيخ، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٥م).

ديدييه في وصف المقاهي من السويس وإلى سيناء وينبع وجدة، مع الإشارة إلى مكانة جدة في تجارة البن وممارسة الشريف لها، ثم الطائف أخيراً. وعلى الرغم من أن الحديث عن المقاهي الواقعة ما بين جدة والطائف - كما قال تاميزييه - أصبح معروفاً، إلا أن ديدييه مع ذلك يقدم في الواقع أوثق تعداد لهذه المقاهي، حيث أحصاها باثني عشر مقهى، ذاكراً أسماءها والمسافة بين كل واحدة والتي تليها. ومما يميز ذكر ديدييه لهذه المقاهي عن سابقيه هو أنه كان أول من سافر من جدة إلى الطائف عن طريق السيل، وليس عن طريق الكر والهدا مثل بوركهارت وتاميزييه، ولذا فإن ما يذكره ديدييه هنا يعد جديداً، ولا سيما حينما يورد معلومات عن الخدمات الإضافية التي توفرها هذه المقاهي، وخاصة الكبيرة منها، مثل: الحليب والأرز والخراف المشوية، وديدييه على أية حال لا يشير فيما إذا كانت مثل هذه المقاهي الكبيرة واقعة في طريق السيل التي صعد عن طريقها إلى الطائف أو واقعة على طريق الكر التي نزل منها من الطائف إلى مكة المكرمة، بصفة أن الأخيرة كانت طريق القوافل الأسرع. وأوصاف ديدييه أيضاً مملوءة بتجاربه الشخصية مع شرب القهوة، ولا تخلو من ملحوظات خاصة، ففي صورة قريبة لما قاله والن عن أثر القهوة في بناء العلاقات الاجتماعية، يذكر ديدييه بأنه أصبح أثيراً بين رفاق رحلته حينما ضاعف لهم كمية القهوة والدخان أربع مرات، بل عشر مرات على حسابه في المقاهي التي كانوا يقفون فيها(٩٣).

ومن الرحالة الذين أوردوا ملحوظات طريفة عن القهوة جديرة بالوقوف عندها، الرحالة الإنجليزي لويس بلي (Lewis Pelly)، الذي ارتحل من الكويت إلى الرياض في مهمة رسمية لمقابلة الإمام فيصل

(٩٣) شارل ديدييه، رحلة إلى الحجاز في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي، ١٨٥٤م، ترجمة: محمد خير البقاعي (الرياض: دار الفيصل الثقافية، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م)، ٦٢، ٧٨، ٧٩، ٨٢ - ٨٣، ١٤٣، ١٤٩، ١٦٠، ٢١٤، ٢٣٠، ٢٦٦، ٢٦٩ - ٢٧١.

بن تركي عام ١٢٧٧هـ/١٧٦٠م. فهو عندما كان في الكويت دخل في ضيافة الشيخ يوسف بن بدر، أحد المشايخ الكبار، ونقل عنه ولعه بالشيشة التركية وإدمانه القهوة، وقوله: إن "مخ العربي - مكون من القهوة"، وكان هذا باديا على الشيخ نفسه الذي أخبر بلي بأنه ليس هناك ما يفتقده في رمضان سوى الامتناع عن تلك الرفاهية (القهوة). وبعد رحلته إلى الرياض تأكد بلي من هذه الحقيقة، إذ أردف قائلاً: "ومن اللافت للنظر أنه بينما لا يكلف العربي نفسه عناء حمل غيار واحد من الملابس، فهو يثقل بعيره في الوقت ذاته بحمل إناء القهوة (دلة) والهاون وأدوات أخرى: فضلاً على البن والزعفران والعنبر"(٩٤).

ومن الملحوظات التي تستحق الإثبات بشأن القهوة، تلك التي أوردها جيمس أريموند ولستد (J. R.Wellested) الذي اقتصرت رحلته على مناطق في شبه الجزيرة العربية ولا سيما الجنوب الغربي منها (عمان) بين عامي ١٢٥١-١٢٥٢هـ/١٨٣٥-١٨٣٦م. ومما قاله عن مشاهدات له أثناء رحلته: إن "... من عادة الأهالي هنا (في أطراف عمان) أن يعملوا شروخاً في أخماص أقدامهم، ثم يقربوها من النار، ويشربوا أكواباً من القهوة مضافاً إليها كميات من التوابل أو الفلفل" معتقدين أن ذلك يشفيهم من الحمى والمغص(٩٥).

خلال قرون الذروة في تجارة البن وانتشار شرب القهوة (١١-١٢هـ/ ١٧- ١٨م)، كان الحديث عن البن والقهوة هدفاً أولياً للرحالة القادمين إلى شبه جزيرة العرب. بيد أن أفول عصر الذروة على نهاية

(٩٤) لويس بلي، رحلة إلى الرياض، ترجمة: عبدالرحمن عبدالله الشيخ وعويضة بن متيريك حامد الجهني، (الرياض: جامعة الملك سعود - عمادة شؤون المكتبات، ١٤١١هـ/١٩٩١م)، ١٦-١٧، ٩٩؛ انظر هامش المحقق، ففيه شرح وشعر عن شغف العربي بالقهوة (هامش: ١٥٩).

(٩٥) جيمس ريموند ولستد، تاريخ عمان، رحلة في شبه الجزيرة العربية، ترجمة: عبدالعزيز عبدالغني إبراهيم، (لندن: دار الساقي، ٢٠٠٢م)، ٦٥.

القرن ١٢هـ/١٨م أدى - كما هو متوقع - إلى خفوت الحديث عن تجارة البن، وإقصاء ذكر القهوة إلى الأولويات الثانوية. ولا جدال أن ما حصل كان يعكس أمراً واقعاً؛ إذ تعرضت تجارة البن اليمني - بسبب دخول المنافس له والتقلبات التجارية العالمية - إلى كثير من الضمور، كما أن القهوة بوصفها مشروباً غدت شيئاً غير ملفت للانتباه.

إن ضمور حديث البن والقهوة في ذاكرة الرحالة التالين القادمين إلى الجزيرة العربية لم يكن سببه حصراً على السبب المذكور آنفًا، بل كانت له أسبابٌ أخرى تعكس في الواقع حالتي البن والقهوة نفسيهما في ذلك الوقت، منها: أن الرحالة أنفسهم لم تعد وجهتهم مقصورة إلى الترحال إلى حيث النشاط المكثف لتجارة البن والحديث الغامر عن شؤون القهوة، بل تعددت الوجهات اضطراراً إلى جهات أخرى من الجزيرة العربية. وفي تلك الجهات كانت تجارة البن - أو غدت - أمراً مسلماً لا يثير المتابعة، والقهوة - على المنوال نفسه - أصبحت شأناً عادياً. وهكذا عندما أخذ الرحالة يشدون الرحال إلى نجد، فإن أمثال هؤلاء استأثرت على اهتماماتهم اهتمامات أخرى مثل تلك التي استأثرت على اهتمامات أقرانهم الذين ارتحلوا إلى الديار المقدسة، ولقد رأينا كيف غلّب هؤلاء اهتمامهم بوصف الحرمين والمشاعر، وعلى السياق نفسه غلّب الراحلون إلى نجد وصف حكام الدولة السعودية الناشئة، كما انصب حديثهم على الدعوة السلفية ونموها. وإذا وجدت فرصة للحديث عن القهوة بعد وصف الرياض ونموها السياسي، فإن هذه الفرصة أتت في سياق الحديث عن تناول فنجان من القهوة في الاستقبالات الرسمية. وقد مثل هذه الحالة تماماً لويس بلي، إذ ليس هناك أوجه شبه بين ما قاله عن القهوة أثناء رحلته وما قاله عنها أثناء إقامته في الرياض[٩٦].

(٩٦) بدول، ١٩١. انظر كذلك هامش المترجم لرحلة بلي، رقم (٨٥).

في مقابل المناطق المالكة لما يستأثر بأولويات اهتمامات الرحالة، مثل: الحجاز ونجد، كانت الأجزاء الشمالية من الجزيرة العربية والممتدة من الجوف غرباً وإلى حائل شرقاً أقل المناطق خلواً منها. وخلو المنطقة من المؤثرات المسترعية الكبرى لانتباه الرحالة فتحت المجال واسعاً لبروز حديث القهوة فيها مجدداً. وهذا تبرهن عليه المساحة الواسعة التي احتلها حديث القهوة في مدونات من حلوا بمناطقها من الرحالة.

بيد أن غياب ما يصرف أنظار الرحالة عن القهوة في المنطقة المذكورة، لم يكن في حقيقة الأمر إلا عاملاً إلى جانب توافر عوامل مساعدة أخرى متفاعلة على قدر مساو. ففي الجانب السياسي، وفي زمن وصول الرحالة - الذين سنعرضُ لاحقاً أوصافهم - كانت المنطقة برمتها تابعة لآل رشيد حكام حائل، والجوف وسكاكا، المحطتان الرئيسيتان للرحالة، كان يحكمهما نواب لهم، والنواب بهذه الصفة كانوا أقرب إلى أن يكونوا شخصيات محلية ممن يتمكن الرحالة من عقد علاقات عادية معهم بعيدة عن الرسميات، ولا سيما عندما يستضاف الرحالة على أنه ضيف الأمير في حائل. ونرى ذلك في إشارة الرحالة إليهم بأسمائهم دون إلحاقها بألقاب وصفات. ويقدم يوليوس أويتنج (Julius Euting) (عبدالوهاب بن فرنص الشوابي) (تاريخ رحلته عام ١٣٠١هـ/١٨٨٣م) قصة رمزية لذات المغزى، فهو يقول: إنه أظهر الغضب في كاف لأن مضيفه عبدالله بن خميس قدم له القهوة آخر الحاضرين ممن كانوا في المجلس، مما أدى بعبدالله إلى أن يعتذر له ويصنع له قهوة خاصة. ويستطرد أويتنج راوياً أن ابن خميس استلف منه قهوة... كما سمح له في مناسبة أخرى أن يدعو ضيوفه إلى قهوة يصف أويتنج كيف أعدها[٩٧].

(٩٧) يوليوس أويتنج، رحلة داخل الجزيرة العربية، ترجمة: سعيد بن فايز السعيد، (الرياض: دارة الملك عبدالعزيز ١٤١٩هـ/١٩٩٩م)، ١٣٨، ويضيف، "علاوة على ذلك فقد عمل لنا القهوة الطازجة خمس مرات متتالية خلال الفترة ما بين الرابعة والسابعة مساءً"، ١٣٩ - انظر أيضاً: ١٥١، ١٦٢، ٢٠٣.

اجتماعياً: اشتهرت المنطقة وأهلها بالكرم[٩٨]. وعندما يكون الكرم صفة، فإن القهوة تغدو رمزاً. وهذا الأمر يؤكده إجماع الرحالة الذين حلوا بها، فعندما حلت آن بلنت (Lady Anne Blunt) الجوف في ٦ يناير ١٨٧٩م (١٣ المحرم ١٢٩٦هـ)، نزلت في ضيافة رجل تسميه بـ (حسين)، وبعد سماعها عتاباً متكرراً من آخرين حضروا المجلس على عدم منحها لهم أسبقية ضيافتها، تقول: إنها تناولت القهوة للمرة التاسعة أو العاشرة منذ بدء المجلس وإلى أن دخل المجلس رجلان من رجال أمير حائل... ولم تخبرنا بلنت كم مرة تناولت القهوة بعد ذلك. وتكررت التجربة مرة أخرى في سكاكا حينما ذهبت إلى هناك تلبية لدعوة أميرها ابن درع، وهناك تمضي بلنت قائلة: أكرمنا في كل المنازل، وكان علينا أن نشرب فناجين لا نهاية لهما من القهوة المطعمة بالهيل، وأن نأكل ما لا يحصى من تمر حلوة الجوف[٩٩]. ويقر أرشيبولد فوردر (Archibald Forder) الذي وصل الجوف في (١٩٠١م/ ١٣١٨هـ) بأن جوهر حاكم الجوف كان يدعوه إلى القهوة على الرغم من كراهيته له لكونه مسيحياً[١٠٠].

اقتصادياً: يشير أكثر من رحالة إلى أن القهوة هي المشروب الأول لأهل الجوف. والموقع الجغرافي المميز للمنطقة ووقوعه على معابر طرق القوافل يسر لأهلها الحصول على حاجتهم منها دون مشقة كبيرة، وعندما استفسر أرشيبولد فوردر كيف يحصل الناس على

(٩٨) عبدالرحمن بن أحمد بن محمد السديري، الجوف - وادي النفاخ، (الجوف: مؤسسة عبدالرحمن السديري الخيرية د. ت)، والعنوان الذي اختاره المؤلف لكتابه، بعد اسم المكان. يرمز نحو صفة بارزة من صفات أهله، وكناية عن كرمهم. (انظر: الصفحة الأخيرة من الكتاب).

(٩٩) الليدي آن بلنت، رحلة إلى بلاد نجد، ترجمة: محمد أنعم غالب، (الرياض: منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ١٣٨٩هـ/١٩٧٨م)، ٦٣-٦٤، عوض البادي، الرحالة الأوربيون في شمال الجزيرة العربية، منطقة الجوف ووادي السرحان ١٨٤٥-١٩٢٢م (الرياض: دار بلاد العرب ١٤١٨هـ)، ١٢٧.

(١٠٠) عوض البادي: الرحالة الأوربيون في شمال الجزيرة العربية، ٣١٠ - ٣١٢.

أغراضهم الضرورية مثل القهوة على الرغم من غياب الحوانيت في الجوف، أجيب بأنهم يعتمدون على القوافل القادمة من مكة المكرمة وبغداد ودمشق[١٠١]. وأبدى كل من إس. إس بتلر (S. S. Butler)، وإل. إيلمر (L. Elmer) الملاحظة نفسها عن الجوف وسكاكا بقولهما بأنه "لا توجد دكاكين – على الرغم من وجود السوق – حيث تتم عمليات البيع والشراء في البيوت التي يمتلكها التجار هناك"، وأضافا بأنهما لم يجدا في المدينتين شيئاً يمكن شراؤه عدا القهوة والدقيق[١٠٢]. وتوافر البن ساعد أهل المنطقة على إرضاء صفة الكرم التي عرفوا بها.

إلى جانب امتلاك الجوف وما حولها خصائص متفردة، وفرت المنطقة للرحالة الذين حلوا بها شرطاً كنا قد ألمحنا سابقاً إلى وجوب توافره؛ لكي يلتفت الرحالة لشؤون القهوة وأخبارها، والمعني بهذا؛ الوقت والراحة، والتحلل من الأولويات والرسميات. كان الرحالة الذي ينزل الجوف وما حولها يجد نفسه في حل من أي التزامات ورسميات فارضة تلزمه الاستجابة لها، كما كان بعيداً عن التقيد بخطة رحلة رسمية خاضع لجداولها. وبتوافر كل ذلك كان الرحالة يجد راحة نفسه وهو يرنو إلى ما سوف يجلبه الغد.

في الجوف يكون الرحالة إما في بداية انطلاقة رحلة إلى داخل الجزيرة، وإما يكون هناك في نهاية رحلته يستعد لمغادرتها إلى موطنه، في كلتا الحالتين، في تهيئة نفسه لبدء مغامرة في الحالة الأولى، وفي إراحة نفسه بعد العناء في الحالة الثانية، كان الأمر يتطلب منه البقاء زمناً، فهو في الحالتين ليس في عجالة من أمره. وعندما يتوافر الوقت مع سهولة التعايش يعززه بساطة المستقبلين وكرمهم، وثراء المحيط الجمالي وأريحيته، فإن نتاجه يكون صلات وشائج اجتماعية أقوى. وعندما يتحقق كل ذلك تكون القهوة هي

(١٠١) نفسه، ٣٠٢ – ٣٠٣.

(١٠٢) نفسه، ٣٤٧.

همـزة الـوصل والوصــال، نهـاراً في (القـهـاوي) وليـلاً فـي البـراري القريبة[١٠٣].

كـان جورج والن أول الـواصلين لمحـيط الجـوف الـذي تحـدثنا عنه، بيد أنه فوت على نفسه الاستـفـادة مما كان ينتظره هناك لاضطراره إلى مغـادرتهـا سـريعـاً لارتبـاطه بقـافلة مغـادرة، ولهذا لم يـحـدثنا عن القهوة فيها، بل أتى الحديث عنها أثناء ترحله مع القافلة، كما مر بنا.

ولذا وبطواعية منه تنازل جورج والن عن ريادة الحديث عن الجوف والقهوة فيها لـ وليم جيفرد بلجـريف (William Gifford Palgrave) (أبو محمود إلياس) الذي وصل الجوف عام ١٢٧٩هـ/ ١٨٦٢م.

لم تستقبل قهوة الجوف بلجريف، بل وصلها ومعه كمية من البن. ومن الزوبعـة الشـرائيـة التي أحدثتها تلك الكمية في الجـوف يمكن القول بأن كميتها لابد أنها كانت كبيرة؛ فقد كان هناك إصـرار من قبل مضيفه غافل - كما يذكر بلجريف - على احتكار بيعها، وليس معروفاً ما إذا تم صـرف الكمية بهذه الوسيلة أو أنها بيعت بطريقة أخـرى، ولكن المُسجل أن الكميـة دخلت في تجـارة مع أهل الجـوف استمـرت ثمانية عشر يوماً، فاض منها ما يكفي لتقديم الهدايا، منها تلك التي قُدمت لحـمـود سـاكن قلعـة مـارد الذي قـبلهـا كـمـا يؤكـد بلجريف: "صاحب السعادة بترحاب عظيم"[١٠٤].

إن البن الذي حـمله بلجـريف إلى الجـوف وبتلك الكمـيـة الكبـيـرة يسـتـحق التـوقف عنده قليـلاً، فـالأرجح أن الكمـيـة لم تكن من البن اليـمـني، فـهـو نادر ومطلوب طوال مـحطات وصـوله إلـى الجـوف من اليـمن، فـضلاً عن غـلاء سـعـره. ولربما كان من البن الوارد من مناطق

(١٠٣) يشـيـر أكـثـر من رحـالة إلى أن شـرب القـهـوة لم يكن ينتـهي بانقـضـاء مـجـالس النهار، بل يتواصل ليلاً، إذ ينتقل إلى البساتين والبراري لمزيد من قهوة الليل على شب الحطب والسمر والأهازيج والربابة والشعر.

(١٠٤) عوض البادي، الرحالة الأوربيون، ٧٨، ٨٣ - ٩٤.

تصديره في أمريكا الجنوبية أو مناطق زراعته الجديدة الأخرى، وبهذا يكون بلجريف ممن بادر فيما يعرف بالتجارة العكسية للبن إلى الجوف على أقل تقدير، أي بدلاً من جزيرة العرب وإلى خارجها كما كان في القرون الثلاثة الماضية منذ الاهتداء إلى البن، وإنما من خارج الجزيرة وإليها، كما كان واقع تجارته عندئذ.

إن وصول بلجريف إلى الجوف مع البن، أدى بالتالي إلى أن ترتبط أوصاف رحلته مع القهوة ارتباطاً وثيقاً. وفي كل مرة يطفو الحديث عن القهوة في ثنايا الرحلة، نرى بلجريف يبدي آراء نخلص منها إلى أنه كان قد غدا خبيراً بشؤونها. ففي الجوف كان هو أول من قدم وصفاً لطقوس إعدادها، بادئاً من وصف المجلس (القهوة) وطريقة جلوس الضيوف إلى بدء الإعداد؛ من إشعال الحطب، وحمس البن ودقه بالهاون إلى مراحل الطبخ والتوزيع والتقديم والتكرار إلى أن ينفض المجلس، ويقدم لهذه المراحل رأياً معبراً بقوله: إن سويلم (معد القهوة) كان يقوم بعمله "باهتمام وجدية فائقة كأنما رفاهية الجوف كلها تتوقف على هذه العملية"(١٠٥).

محملاً بالولع بالقهوة والخبرات التي كسبها عنها تجاوز بلجريف حدود الجوف جنوباً، وفي كل محطة من محطات رحلته أظهر دراية بالقهوة وإلماماً بطقوسها وعاداتها. وبهذه المعرفة قارن بين القهوة العربية التي رأى أنها منعشة، ومقوية للجسد، وذات رائحة جميلة، وأفضل من القهوة الطينية الممزوجة بالماء التي تشرب في بلاد الشرق

(١٠٥) لم نشأ إيراد الوصف بكامله لطوله، انظر:

W. G. Palgrave, Personal Narrative of a Year's Journey Through Central and Eastern Arabia, 1863 - 1962, (London: Darf Publishers Limited 1985), 35 - 39.

عوض البادي، ٦٢ – ٩٦. ترجمة رحلة بلجريف بعنوان: وسط الجزيرة العربية وشرقها، تأليف: وليم جيفر، ترجمة صبري محمد حسن، المجلس الأعلى للترجمة – القاهرة: ٢٠٠١م في مجلدين.

والفرنسية[١٠٦]. وعلى مشارف بريدة شاهد هو ورفاقه دخاناً متصاعداً من نار مشتعلة معلنة عن قهوة تطبخ في مضارب لحجاج مخيمين، وعندما رأى بلجريف حماسة رفيقه العربي بركات للتوجه إلى المكان، علق أن العربي قلباً وقالباً لا يمكن إلا أن يشارك في مثل تلك الدعوة المفتوحة. وتوجه الجميع إلى المخيم، وشاركوا في شرب القهوة[١٠٧]. وفي بريدة تحدث بلجريف من أسواقها، وقدم في سياق أوصافه معلومات مهمة عن تجارة القصيم المباشرة مع اليمن، إذ مثّل البن سلعة مهمة فيها. ولا يفوّت بلجريف الفرصة السانحة دون أن يعطي وصفاً لنتاج هذا النشاط التجاري، بقوله: "إذا اجتمع حطب الغضا والمرخ مع بُن المخا فإن القهوة تكون فائقة الجودة"، ولا يترك بلجريف القصيم إلى الرياض إلا بعد أن يرسم صورة معبرة عن القهوة فيها، في طلائع الصباح في بريدة، يقول بلجريف راسماً: "كنت أستيقظ على جلجلة دق الهاون الآتي من كل دار استعداداً لإعداد قهوة الصباح، وكان أقرب تلك الضربات في فناء منزلنا، حيث يكون رفيق رحلتي (أبو عيسى) قد شرع في شب النار التي أخذ سناها يتراقص في غمقة الصباح مع ضربات هاونه"، ويكمل بلجريف الصورة المرسومة: "ليس هناك عربي، مهما بلغ من الرفعة، يرى نفسه أرفع من إعداد القهوة بنفسه، بدلاً من ترك المهمة لأحد عبيده، فإعداد القهوة عمل لا يترفع عنه الرجال"[١٠٨].

رحلت اهتمامات بلجريف بالقهوة معه إلى الرياض، ووجد هناك ما يعززها، فقد توافرت له الفرص لتذوق (السلطانية) منها - كما يسميها - في مجالس الإمام فيصل بن تركي، برغم أنه لم يحظ بمقابلته لغيابه حينذاك عن الرياض، وكذلك في مجالس ابنه، الإمام

(106) W. G. Palgrave, Central and Eastern Arabia, 30.
(107) Palgrave, 170.
(108) Palgrave, 187.

عـبـدالله. وتكرر تجـاربه في تذوق مـثل هذا النوع من القـهـوة أدى ببلجريف إلى الحكم بأن القهوة في الرياض لا يعلى عليها[١٠٩]، وأتبع ملحوظته بإقرار بأنه - مثل رفقاء رحلته - غدا لا يطيق الصبر عن القهوة. وكان بلجريف، كما يقول، لا يواجه مشقة في إرضاء إدمانه للقهـوة، فهو فضلاً عن أنه كان يشربها باستمرار في المجالس الرسمية التي كان لا ينقطع عن ارتيادها، كان يُمد أيضاً بما يحتاجه من البن - مع مؤن أخرى - من القصر بحكم أنه كان ضيفاً على الإمام فيصل. الأمر الذي طمأن بلجريف، كما قال: "من بقاء دلال قهوته مشتعلة في (قهوة) الدار التي خصصت لسكناه طيلة النهار، وعلى سطحها ليلاً، كما أن فناجين قهوته - بهذا الكرم - كانت تبقى مملوءة على الدوام بها". ويقر بلجريف بأن استهلاكه للقهوة بهذا الاسترسال لم يعرضه لمشاكل نقص البن، فالقصر كان يستجيب لطلب المزيد منه على الدوام[١١٠].

إن إدمان بلجريف القهوة في الرياض، حرّصه على متابعة شؤونها أيضاً، ومن خلال المتابعة، عقد بلجريف مقارنة بين القهوة التي تذوقها في الرياض وتلك التي شربها خارج جزيرة العرب، وخلص إلى الحكم بأن أفضل بن هو البن اليمني من المخا، وهو النوع الذي يستهلك في الرياض على وجه الخصوص، وفي جزيرة العرب على وجه العموم، وما يزيد من البن بعد استهلاك أهل الجزيرة له يكون من نصيب مصر، عبر جدة، ومنها إلى القسطنطينية، ولا يحصل الغرب من الفائض بعد ذلك إلاّ على أردأ الأنواع منه. وبهذا القدر من الإلمام بأخبار القهوة، يواصل بلجريف متابعته بعرض تقرير واف عن مسارات تجارة البن من اليمن إلى نواحي جزيرة العرب، عاكساً دراية غير مسبوقة بأسرارها ومسالكها، مما يؤهله إلى أن يكون الأهم

(109) Palgrave, 232 - 233, 236.

(110) Palgrave, 256 - 257.

فيما كتب عن طرق انتشار البن لا سيما في نجد وشرق الجزيرة العربية[١١١].

ويوفر بلجريف عناية خاصة في تعداد خصائص القهوة النجدية وتميزها؛ ويشير إلى أن ما يجعل القهوة مميزة خاصة في الرياض عن غيرها من مناطق جزيرة العرب يعود إلى أمرين: أولهما، أن القهوة في الرياض عن غيرها من المناطق يضاف إليها الزعفران والقرفة وتوابل أخرى، وثانيهما أن القهوة في الرياض تشرب وحدها، أي غير مصحوبة بالدخان والنارجيلة مثل بقية المناطق، وهذا يعزز طعمها لدى الشارب كما يروي عبقها، فضلاً أن فنجان القهوة في الرياض أكبر حجماً؛ مما يؤدي إلى إشباع التذوق. وتنتقل المقارنة إلى (القهوة) بوصفها مكاناً. ويذكر بلجريف أن (القهوة) في الرياض أكبر حجماً، فتشكل أحياناً (٤٠م) في مثله، فيما (القهوة) في الجوف والقصيم وسدير أصغر حجماً. وبينما (القهوة) في هذه المناطق مفتحة ومشرعة النوافذ، "القهوة" في الرياض مظلمة بسبب خلوها من النوافذ وذلك بسبب - كما يقول - حرارة رياح الصيف. ومثلما وصف بلجريف طقوس إعداد القهوة وتقديمها في الجوف، يعرض وصفاً لإجراءات تقديم القهوة في الرياض[١١٢].

والمقاهي، بالصورة التي عرضناها في مناطق غرب جزيرة العرب وحواضرها مثل: مكة المكرمة والمدينة المنورة والطائف، والتي تختفي تماماً من بعدها شرقاً في نجد والشمال، تعاود الظهور مرة أخرى على سواحل الخليج، حيث يقدم لنا بلجريف أوصافاً عن مقاهي البحرين وصحار[١١٣].

(111) Palgrave, 257 - 259.

(112) Palgrave, 236 - 238, 255.

(113) Palgrave, 283, 381-383.

ومثلما تجاوز بلجريف الجوف إلى الرياض وقدم أوصافاً دقيقة عن مجالس القهوة وإعدادها وتقديمها، مرت آن بلنت تقريباً بالتجربة بنفسها، حين وصفت مجالس القهوة في الجوف، بيد أنها اهتمت - وهي المرأة الأرستقراطية - بجوانب الأناقة والنظافة وحسن الضيافة في تلك المجالس أكثر من اهتمامها بطقوس تقديم القهوة. وعند انتقالها إلى حائل - حيث حلت ضيفة على أمرائها من آل رشيد - واصلت حديث القهوة بتأكيد كرم الضيافة، وتناولها القهوة مراراً في المجالس الأميرية، إلا أن أولويات اهتمامها انصب في حائل على مشاهد وصف الخيول العربية الأصيلة، والانشغال برسم رمال النفوذ(١١٤).

بالرغم أن الغاية من هذه الدراسة هي استقصاء كل ما دونته أوصاف الرحالة عن البن والقهوة في الجزيرة العربية، إلا أن الدراسة مع ذلك تجاوزت عمداً عن رصد أوصاف كل من بلجريف وبلنت لمجالس القهوة، وطريقة إعدادها، وكيفية تقديمها في الجوف، كما دونتها ملحوظتاهما هناك، مع إثبات وجودهما والاكتفاء بالإشارة إلى مواضعهما في سياق الرحلتين(١١٥).

ولم يكن مبعث التجاوز إهمال الوصفين والتقليل من أهميتهما، فهما يحويان جوانب تتضمن الجدة والتفرد، لكن الداعي كان في وجود وصف أكمل وأشمل وأغنى بالتفصيلات التي لا تتوافر في الوصفين الآخرين، وخشية أيضاً من الوقوع في التكرار لتشابه الأوصاف لكون الموصوف هو نفسه، لذا فضلت الدراسة الاكتفاء بوصف يوليوس أويتنج، الذي حل بالجوف عام ١٣٠٠هـ/١٨٨٣م، وذلك عائد لشمولية الوصف ودقته، ولأن صاحبه أرفق وصفه برسوم

(١١٤) عوض البادي، الرحالة الأوربيون، ١١٣.

(١١٥) انظر مواضع الوصفين: يوليوس أويتنج، رحلة داخل الجزيرة العربية، ٤٤، ٩٩ - ١٠٥. آن بلنت، رحلة إلى بلاد نجد، ٦٣، ١٦٦، ١٨٨، ٢٦٩ - ٢٨٧.

توضيحية انفرد بها عن غيره. وقد سطرت أوصاف أويتنج شعيرة إعداد القهوة وتقديمها في الجوف على النحو الآتي: "... وفي المساء ١٨٨٣/٩/١٨م (١٣٠٠/١١/١٧هـ) انقلبت رياح الجنوب الشرقي إلى عاصفة صحراوية مما أثار الأتربة القذرة، لذلك دعوت الجماعة للجلوس معي في (القهوة)، ولعلي هنا أجدها فرصة مناسبة لأشرح لكم طريقة إعداد القهوة عند البدو. فهي تختلف عما يسمى بالقهوة التركية، إذ تتفوق عليها في الطعم وإثارة الانتباه، فبينما المرء في أوربا يريد القهوة جاهزة أمامه على المائدة ويستمتع معها بتدخين السيجار، فإن البدوي يجد متعة بالغة في مراقبة العمليات الطويلة المملة في إعداد القهوة بحيث يبدو أن شرب القهوة لا يمثل أخيراً سوى الجانب غير المهم في العملية.

في البداية يتم إشعال النار في الحطب الموجود في الحفرة (الوجار) أو إشعال الفحم في الفرن الموجود في الركن على ارتفاع (١,٥ قدم). وذلك باستخدام الفحم الذي ينفخ فيه بمنفاخ، ثم توضع الحبوب على محمصة مسطحة من الحديد ذات ارتفاع طوله قدمان، ويتم تقليبها أثناء التحميص بملعقة مربوطة بسلسلة حديدية، ثم توضع بعد ذلك في المبرادة. ثم بعد ذلك توضع في النجر وتطحن بأدوات حجرية حتى تصبح مثل الدقيق، ثم تخرج بواسطة ملعقة التقليب الحديدية، وفي أثناء ذلك تجهز الدلال الثلاث حيث يوضع الماء في أكبرها على النار حتى يغلي، ثم يصب في الثانية التي تحتوي أيضاً على البن المطحون، وتوضع فوق النار لمدة عشر دقائق حتى تختفي الرغوة وينتفخ البن تماماً. ويظل مترسباً في القاع، وخلال ذلك تطحن بعض حبوب الهيل، وتوضع في الدلة الثالثة، ويصب عليها محتوى الدلة الثانية، ثم توضع الدلة الثالثة قليلاً فوق النار، ثم تنحى جانباً حتى تترسب كل المواد في القاع، وبذلك - وبعد حوالي (٣٠ إلى ٤٠) دقيقة - يكون قد تم إعداد القهوة، ويقوم شخص

بإمساك الفناجين الصغيرة، وكلها بلا أيد أو أطباق في يده اليسرى، وتتراوح ما بين (٦ - ٨) فناجين داخل بعضها بعضاً، ثم يصب فنجاناً للجالسين حسب ترتيب أهميتهم، ولا يتجاوز ما يصبه في الفنجان نصف محتواه"(١١٦).

بدخول القرن الرابع عشر الهجري/٢٠م، ومع قيام المملكة العربية السعودية وظهور الدول الخليجية العربية، تواصلت مواكب الرحالة الأوربيين دون انقطاع في الوصول إلى أراضي تلك الدول، كما تواصل حديثهم عن القهوة فيها على الوتيرة السابقة نفسها. وكان ألويس موسل (Alios Musil) (موزل عند آخرين) آخر هذا الرعيل (رحلته ما بين ١٣٢٦-١٣٢٧هـ/١٩٠٨-١٩٠٩م)، بدأ رحلته في الجوف، بيد أنه قضى معظم أيام رحلته مع قبيلة الرولة في ضيافة شيخها النوري الشعلان في وادي السرحان، ولذا تسمى باسم موسى الرويلي(١١٧). ومن خلال معايشته الرولة قدم خلاصة مشاهدته لمراحل إعداد القهوة من شب النار وحمص البن وغلي القهوة إلى مراسيم تقديمها. وعلى الرغم من تشابه وصفه لأوصاف بلجريف وأويتنج، إلا أن معرفة موسل الأدق مكنته من تقييم المراحل المتعددة؛ لصنع القهوة بحسب معانيها الاجتماعية والتقليدية، وليس من خلال الأوصاف العملية، فهو مثلاً يؤكد وجوب تناول الفنجان باليد اليمنى، وتذوق القهوة بطرف اللسان، ومص الشفتين، ثم التريث في الشرب، إذ ليس من اللائق أن يشرب المرء كل ما في فنجانه من القهوة بجرعة واحدة، كما من اللائق أن يكتفي الضيف بالفنجان الثالث، ورفض قبول أن يصب له للمرة الرابعة. ومثلما عزز أويتنج أوصافه لمراحل إعداد القهوة برسم رسوم لأدواتها، عزز موسل - مستفيداً من إلمامه بالعربية واللهجات المحلية والشعر الشعبي - أوصافه بإيراد شعر

(١١٦) يوليوس أويتنج، رحلة داخل الجزيرة العربية، ٤٣-٤٤.
(١١٧) عوض البادي، الرحالة الأوربيون، ٣٥٧.

للشيخ الشعلان وغيره عن القهوة تحوي تفصيلات أكثر تمكن موسل من استيعابها(١١٨).

بانقضاء عهود من يمكن تسميتهم بـ"رحالة القهوة"، أبانت قهوة الجزيرة العربية عن كل ما كان يكتنفها من الأسرار والغموض. وهي وإن ظلت المعشوقة المتفردة المالكة لكل نواحي الدلال، ليس بين عشاقها المتامين في حواضر موطنها الأصلي ومضاربه، وإنما في العالم أجمع، إلا أن التعريف بها غدا معروفاً، كما أن وصف سحرها، وما تحدثه في العقول غدا هو الآخر مسبوقاً عليه. لقد أضفى عليها عشاقها الأصليون دون بخل كل ما يمكن أن يضفوا عليها من المزينات، وابتكروا دون كلل ما كان بوسعهم من الابتكارات والطقوس، وبالمثل عرف العالم سبل التعامل بجمالها بما هو متناسب لذوائقهم وقيمهم الخاصة.

ولأنها وُصفت بما وُصفت، وقيل فيها ما قيل، لم يعد الحديث عنها بعد ذلك كله مثلما كان، ولكنها ظلت على الرغم من ذلك حية في الذاكرة، وفارضة نفسها على الرحالة التالين. وهذا ما كان من حالها في مدونات الرحالة المتأخرين من أمثال: هاري سنت جون فيلبي (H. ST. John Philby) وويلفرد ثيسجر (W. Thesiger)، الأول في مدونات رحلاته العديدة في أطراف المملكة العربية السعودية وبقية مناطق الجزيرة العربية؛ والثاني في رحلته التي أخذته في نواحي الجنوب الشرقي من الجزيرة العربية. فالاثنان لا تخلو أسطر رحلاتهما من الإشارة إلى القهوة دوماً، إلا أن الإشارة هنا ليست إلا للقهوة العربية التي يشربها سكان الجزيرة، وليست إلى القهوة كما عرفوها في بلدانهم، فهما أُغرما بشربها بالإعداد والطريقة والتقاليد نفسها التي

(١١٨) أ. موزل، أخلاق الرولة وعاداتهم، ترجمة: محمد سليمان السديس، (الرياض: مكتبة التوبة ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م)، ١٢١ – ١٣٨. وقد شرح المترجم أبيات الشعر، وقدم صوراً ومعاني إضافية.

تشرب بها محلياً، فهما كانا يحملانها، كما يحملان أدواتها ولوازمها أينما حلا في ترحالهما في حواضر جزيرة العرب وباديها(١١٩).

لقد مرت قصة القهوة مع الرحالة الذين جابوا حواضر الجزيرة العربية وصحاريها، كما استعرضنا خطوطها العريضة بتقلبات عدة؛ من مرحلة المفاجأة بالقهوة إلى مرحلة الانبهار بقوتها الاقتصادية، ومن ثم حالة العشق والإدمان التي نشأت بينها وبين إنسان الجزيرة. ورأينا أنه كان لكل مرحلة رحالة ممن انبروا لتدوين تفصيلاتها. وعلى الرغم من أن الدراسة، بسبب المنهج المرسوم لها لم يتسن لها تطبيق المعلومات الغنية المرصودة في مدونات هؤلاء الرحالة عن شؤون القهوة لمنظورها التاريخي من حيث الانتشار والترسخ على واقعها في جزيرة العرب، إلا أن المعلومات المرصودة أثبتت إلى حد كبير أنها مخزون واعد يساعد، ليس في توسيع معلوماتنا عن البن والقهوة في أرض العرب فحسب بل إلى ملء ثغرات نشتكي من غياب نظائرها في المدونات المحلية ولا سيما في الجوانب الاجتماعية والاقتصادية أيضاً، بل حتى في الجوانب السياسية. ولطالما نادى المهتمون بأدبيات الرحلات إلى جزيرة العرب إلى الاستفادة من مكنونات هذه الرحلات، ولعل مثال ما أمكن استخراجه من هذه المكنونات فيما يخص البن والقهوة يؤيد جدارة أمثال هذه الدعوات.

أما عن العلاقات الخاصة التي تشكلت بين الرحالة وأهل الجهة التي ارتحلوا إليها، فإن القهوة كانت دوماً أداة الوصل بين الطرفين، والوسيلة الفاعلة لترسيخ الوشائج. لقد تهيأ للرحالة مقابلة أئمة الدولة السعودية وملوكها وأشراف الحجاز وأمراء آل رشيد وأعيان الجوف. وفي مجالس استقبالهم خبروا تناول القهوة الرسمية.

(١١٩) ويلفرد ثيسجر الملقب مبارك بن لندلي، الرمال العربية، ترجمة: إبراهيم مرعي، (أبو ظبي: موتف أبت للنشر، ١٩٩٩م)، ٤٣ - ٤٩، ٥٠ - ٥٤، ٨٣ - ٨٥، ٢١١، ٢٥٢ - ٢٥٣.

كما تهيأ لهم مشاركة العامة في مقاهيهم و(قهوتهم) والبدو في صحاريهم ومضاربهم. ومن خلال فنجان القهوة الذي استضيفوا به، عرف الرحالة الكثير من أحوال البلاد الخاصة والعامة. وكما دون الرحالة ملحوظاتهم عن عشق إنسان الجزيرة للقهوة، دونوا أيضاً اعترافاتهم بوقوعهم مدمنين لسطوتها، لم يكف الرحالة تناول القهوة من أيدي مضيفيهم الكرماء، بل تعلموا إعدادها وتقديمها على مثل طريقة وعادات وتقاليد من تعلموا منهم أصولها. لقد حملوها وأدواتها مع أحمالهم أينما حلوا وارتحلوا، وتحولوا إلى مشاركين للبدو في عشقها. وفي كل تلك الأحوال بقيت القهوة همزة الوصل بين الرحالة ومستقبليهم في أرض العرب.

لقد كان بوركهارت من بين آخرين من الرحالة ممن سرحوا بخيالهم، ولا سيما في الأوقات التي واجهوا فيها الشدائد والتمنع والصعوبات في بعض أوقات رحلاتهم، متسائلين متخيلين: هل يُستقبل فرد من جزيرة العرب إذا ما ارتحل إلى بلده (بلد الرحالة)، بمثل ما استقبل هو في أرض هذا الإنسان؟! وأيقن المتسائل مدركاً بأن الإجابة هي غالباً بالنفي. فالأوربيون، وهذه هي الصورة الأقرب إلى اليقين، لن يفتحوا أبواب مجالسهم وحجرات بيوتهم لغريب أشعث، رث الملابس ومنهك القوى وعطشان جائع، بمثل ما استقبلوا هم بهذه الهيئة في جزيرة العرب في كل خيمة وقهوة ومجلس ومقهى.

ويقدم يوليوس أويتنج مثالاً لهذا التباين المفترض، فهو حل بالجوف وتنقل بين قراها، وارتحل منها إلى حائل وتيماء والعلا وتبوك، وأينما حل استقبل في (القهاوي) وشرب القهوة بما يرضيه، وقاسم المرتحلين معه قهوتهم القليلة. ولم يتردد بوصف من قصّر في تقديم قهوته بالبخل والطمع، وصب غضبه عندما لم يعامل بالاحترام في مجالس القهوة.

وعلى نهاية رحلته، وعقب توديعه لرفاقه، وقبيل الصعود إلى السفينة التي أقلته إلى بلده في ميناء الوجه، قال خاتماً أوصاف رحلته: "الآن انتهى الاكتفاء بالوجبة المعهودة (خبز وتمر وشاي)، إذ يجب عليّ الآن وبكل ثقة إخراج ما لذ وطاب مما ادخرته ليوم الضيق، الآن آن التمتع بشرب الشوكلادة وأكل البسكوت"(١٢٠).

قد يكون سوء ظن، النظر إلى جميع رحالة جزيرة العرب من خلال ما يمكن لنا الحكم على أويتنج، فأغلب من مررنا على أسطر رحلاتهم لم يماثلوه في صفته. بل هناك من أكد على إثبات صفة الكرم عند العرب. فقد ذكر بيير جوردا، وهو من كتب عن الرحالة الأدباء الفرنسيين إلى البلاد الإسلامية في القرن التاسع عشر: "لقد كانوا العرب يملكون هذا الشيء الكرم، وأنهم يمنحون الضيافة لكل الناس"(١٢١).

(١٢٠) يوليوس أويتنج، رحلة داخل الجزيرة العربية، ٢٣٩.

(١٢١) بيير جوردا، الرحلة إلى الشرق، ترجمة: مي عبدالكريم، علي بدر (دمشق: الأهالي، ٢٠٠٠م)، ٢٧.

الملاحق

شكل رقم (١)

أدوات عمل القهوة

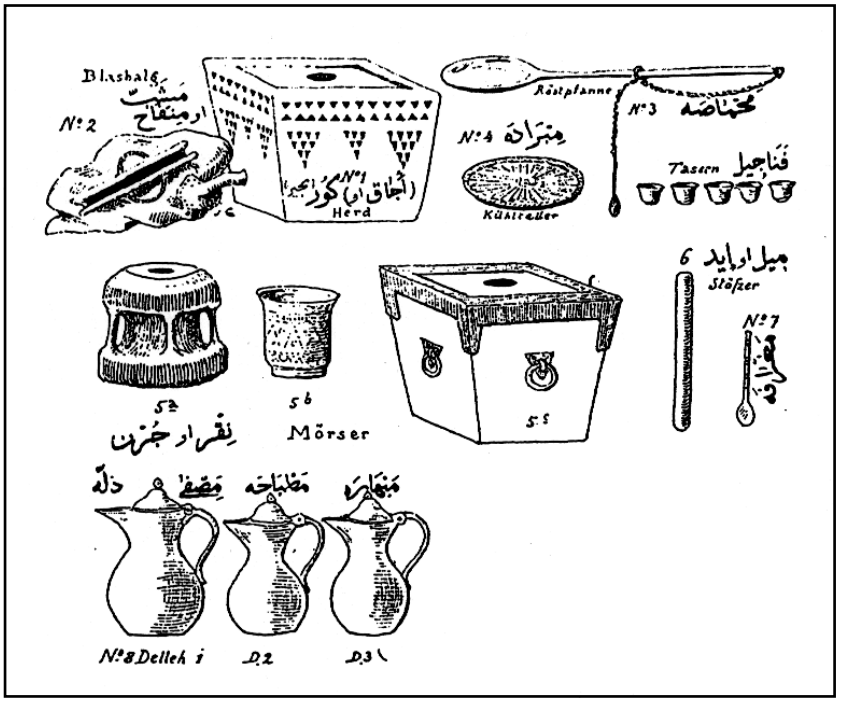

المصدر: يوليوس أويتنج. رحلة داخل الجزيرة العربية ص ٤٤.

شكل رقم (٢)
مخطط منزلنا في حائل

Plan unsres Hauses zu Hâjel

مخطط منزلنا في حائل

المصدر: يوليوس أويتنج. رحلة داخل الجزيرة العربية ص ٩٩.

شكل رقم (٣)
أدوات القهوة

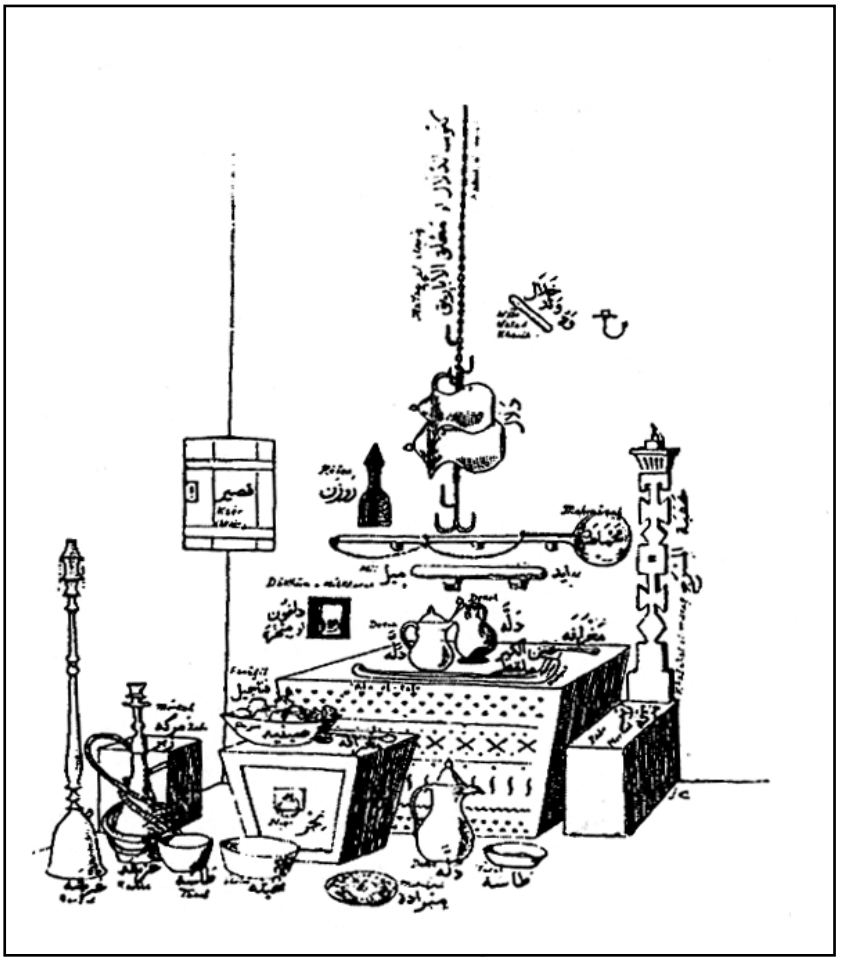

المصدر: يوليوس أويتنج. رحلة داخل الجزيرة العربية ص ١٠٥.